صحيفة شهرية تعنى بالتاريخ السوري والعربي وتستعيد ذاكرة الصحافة العابرة للأجيال

* 16 صفحة *

العربي القديم

شعارها
عدو جدك ما يودك

* العدد الثاني - آب / أغسطس 2023 *

* Issue 2 August 2023 *

طه حسين في دمشق

القضية:
هل كان الأدب السوري ضحية الأيديولوجيا؟

الملف:
محمد الماغوط مراسلاً ثقافياً

عبد القادر الملاح
رائد الحداثة الزراعية في سورية

زكريا تامر
يسخر من أدونيس
أول من أكل وآخر من شبع

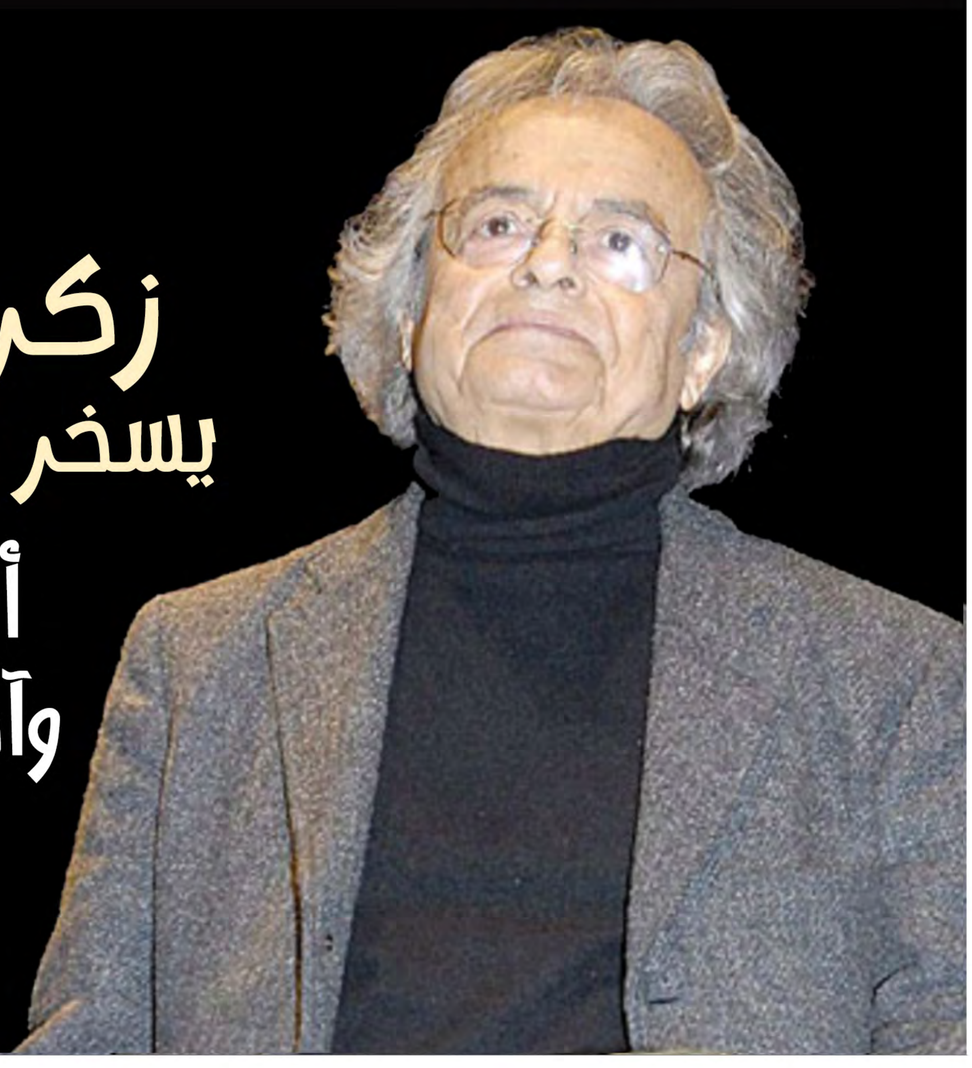

لعبة الأيام

إنجازات حقيقية لأدونيس

ماهر شرف الدين

في مقالة هجائية لاذعة تعود إلى ثمانينيات القرن العشرين، أرسل لي نسخةً عنها الصديق محمد منصور، يكتب زكريا تامر ساخراً من الصحافة العربية التي غضبت لعدم فوز أدونيس بجائزة "نوبل للآداب".

ولكي يزيد من جرعة السخرية في مقاله، يقوم تامر بتعداد "إنجازات" أدونيس التي يجب على القائمين على "نوبل" الالتفات إليها من أجل منحه الجائزة! ومن تلك "الإنجازات" الساخرة التي يسوقها تامر: اكتشاف كروية الأرض، تشجيع شكسبير على كتابة مسرحياته، اختراع الوسادة والقنبلة الذرّية والكوكاكولا... إلخ.

ولكنْ لو قُيِّضَ لزكريا تامر أن يعود إلى كتابة هذه المقالة مجدداً، بعد انقضاء أكثر من عقد على المذبحة السورية، فأنا متأكّد بأنه سيبادر إلى استبدال تلك "الإنجازات" الساخرة والمتخيَّلة بـ"إنجازات" جدّية وحقيقية.

فعلى سبيل المثال، بدل "إنجاز" اكتشاف كروية الأرض، اكتشف أدونيس بأن الثورة التي تخرج من مساجد إيران تختلف عن الثورة التي تخرج من مساجد سوريا! لذلك كتب قصيدة عصماء في مديح الثورة الخمينية ومديح مساجد قُم، بينما وقف مناهضاً للثورة السورية لأنه –ببساطة- لا يؤمن بـ"ثورة تخرج من الجوامع".

وعلى سبيل المثال، بدل "إنجاز" تشجيع شكسبير على الكتابة، شجَّع أدونيس بشار الأسد على "الإصلاح" –بعد شهور من المذبحة السورية- من خلال رسالة نشرها في جريدة "السفير" اللبنانية خاطبه فيها بصيغة "السيد الرئيس" وقال له حرفياً "بوصفكَ رئيساً منتخباً"!

وعلى سبيل المثال، بدل "إنجاز" اختراع الوسادة، اخترع أدونيس وسادة سحرية مخصَّصة لضمير المثقف، لكي ينام ويستغرق في نومه في زمن المذابح الشعبية، بلا كوابيس وأحلام مزعجة... وسادة مخصَّصة لحلمه الواحد والوحيد: نيل جائزة "نوبل للآداب".

***

مع مرور الأيام وسقوط الأقنعة، الكثير من المقالات القديمة بحاجة إلى تجديد دائم، ومنها هذه المقالة الساخطة لزكريا تامر.

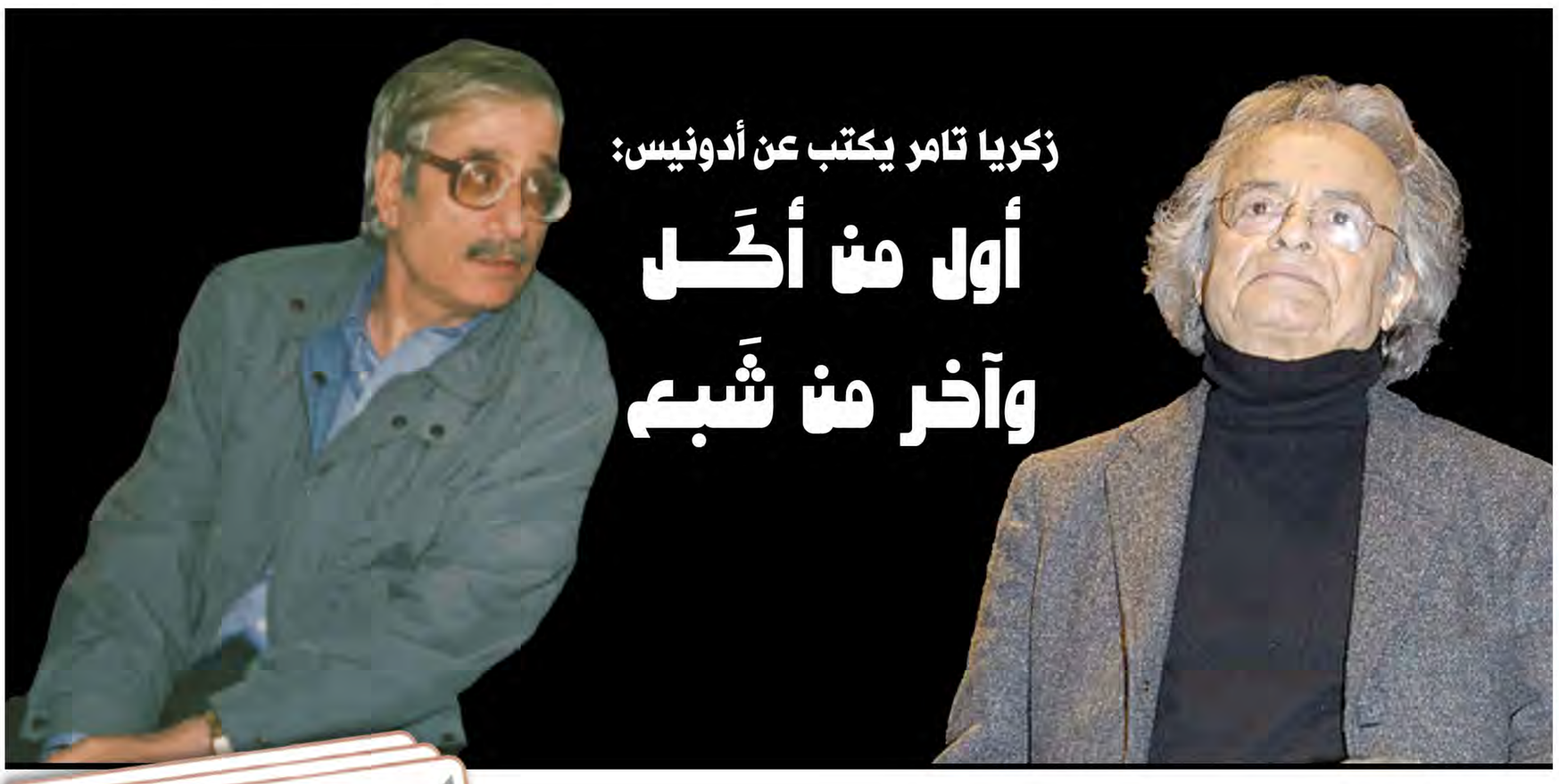

خواطر تمر الخاطر
بقلم زكريا تامر
أول من أكل وآخر من شبع

في واحدة من أعنف نصوصه الهجائية سخرية كتب زكريا تامر قبل أربعين عاماً هذا النص عن لهاث أدونيس المزمن وراء حلم أو "سراب" نوبل!

قالت الصحافة العربية إن قائمة المرشحين لجائزة نوبل للآداب هذا العام قد تضمنت مئة اسم لأدباء من شتى بلدان العالم، وأن اسم الشاعر أدونيس كان من بين تلك الأسماء، ولكن قرار الأكاديمية السويدية بمنح الجائزة للروائي الإنكليزي جاء مخيبا للآمال، وهزيمة للأدب العربي الحديث لا تقل عن هزيمة حزيران.

ومن المؤكد أن الأكاديمية السويدية لو علمتْ بدور أدونيس في تطور مسيرة البشرية والأدب لما ترددت لحظة في منح جوائزها كافة له. وفيما يلي لمحة موجزة عن دور أدونيس وهي لمحة تُنبّه وتحذّر:

- لقد طرد الإنسان من الجنة لأنه لم يطع تعليمات أدونيس الداعية إلى تجاوز الأشكال والمحتويات التقليدية في التراث، وأطاع إرشادات أفعى تؤثر العبودية الوديعة.

- عندما رغب أبناء آدم في أن يعلموا ما إذا كان الطوفان قد انحسر عن الأرض، لم يسارع أحد إلى تلبية رغبتهم، فتحول أدونيس إلى حمامة بيضاء، وطار ليعود حاملا في منقاره غصن زيتون أخضر وبطائق مجانية لركوب الطائرات إلى مؤتمر ثقافي يعقد في بلد أجنبي.

- أدونيس – غفر الله له – لم يكف طوال تسعة أشهر وهو لا يزال جنيناً في بطن أمه عن إلقاء الخطب البليغة المنددة بالبنية الثقافية العتيقة، محرضا على الثورة الثقافية، ومطالبا بتأسيس أدب جديد ذي سيادة وأسياد غير مرئيين.

- لما أصيب الكاتب الروسي دوستويفسكي بداء الصرع، وتكاثرت عليه الديون، وأمسى عاجزا عن كتابة رسالة في سطرين، بادر أدونيس إلى مساعدته، وكتب رواية (الأخوة كارامازوف) وغيرها من الروايات، وسمح له أن ينشرها باسمه حانياً عليه حنو أم رؤوم، فالإنسان يظل أخاً للإنسان مهما اختلفت البلدان، ومهما تناقضت العقائد والأيديولوجيات والانتماءات.

- لما اجتاح المغول والتتار مدن العالم في موجة دمار لا تقاوم، نُمي إلى سمع أدونيس نبأ ما يجري، فنهض واقفا وتمطى وتثاءب ثم شهر سيفه، وانطلق نحو المغول والتتار المعادين للحداثة في الأدب، وحاربهم كالليث الهَصور، وأجبرهم على الفرار إلى آخر الدنيا والاختباء في الكهوف، مرتجفين ارتجافا يفوق ارتجاف أمواج البحر في شتاء عاصف.

- أشفق أدونيس على قرائه، فابتكر النوم والوسادة، فنام من نام نوما طويلا، بينما ظل أصحاب المصلحة مفتوحي العيون يحرسون مصالحهم.

- كان سقراط وأبوقراط وأفلاطون وأفلوطين وداروين ولبلبة وفرويد وشبنجلر تلاميذ لأدونيس، ولكنهم أكلوا ما على مائدته من زاد، ثم ركلوها، فقابل جحودهم بابتسامة متسامحة، واثقاً بأن عزاءه يكمن في الممارسة الإبداعية فقط.

- دحر أدونيس الصليبيين، ولم يُعنَ بتصحيح كتب التاريخ الزاعمة أن صلاح الدين هو الذي هزمهم، فأدونيس تعوَّد أداء واجبه القومي بصمت وتواضع، بعيداً عن الأضواء، غير مطالب بأي ثمن!

- اخترع أدونيس القنبلة الذرية لاستخدامها في تقويض البنية القديمة، ومحو الأنظمة التي تجعل الكاتب يفكر ويكتب ضمن حدود وشروط وقيود. فسرقت أمريكا القنبلة لتبيد مدينتين يابانيتين مملوءتين بالمعجبين بأدونيس.

- غضب على هتلر بعد أن شاهد رسومه الخالية من التطور والتطوير، وأمره بصوت صارم بالانتحار، فامتثل هتلر للأمر، وانتحر بغير أسف وندم، مؤمنا أنه نال عقابا يستحقه.

- ألّف بيتهوفن سيمفونيته التاسعة تمجيدا لنجاح أدونيس في إقناع الديوك بالزواج من الدجاج، فعرف الناس آنذاك البيض المسلوق والبيض المقلي والبيض المشوي والبيض النيء المستخدم في التظاهرات الجماهيرية غير العربية.

- هدم أدونيس الباستيل بيد واحدة، بينما كانت يده الأخرى تكتب التنظيرات لقصيدة النثر، وتبني مستشفيات للأطفال في زنجبار. وترى المقصلة تهوي على عنق ماري أنطوانيت تأديبا لها، لكونها مناوئة للهيام بالهدم الذي هو هيام بالإبداع.

- شجّع أدونيس شكسبير على كتابة المسرحيات، ولم يقطع عنه النصح والإرشاد، إلا بعد أن وثق بأن سعدالله ونوس الذي سيولد فيما بعد لن يتفوق عليه.

- علّم أدونيس أبا حيان التوحيدي القراءة والكتابة، غير ان التوحيدي كان ناكرا للجميل، ولم يعمل بالمثل القائل: "من علمني حرفاً كنتُ له عبداً".

- وضع أدونيس يده على رأس نيتشة الأمي، وقال له بلهجة آمرة: "اكتب" كتب نيتشة كتاباً عنوانه: " هكذا تكلم أدونيس" ولكن الناشر كان شوفينياً متعصباً لقوميته فغيّر العنوان وجعله: "هكذا تكلم زرادشت".

- أول من قال أن الأرض كروية قولاً مدعماً بالأدلة العلمية التي لا تُدحض كان هو أدونيس، كما أنه هو الذي اكتشف أمريكا ومطاع صفدي، لا كولومبوس كما تزعم الدوائر الإمبريالية.

- وأدونيس هو الذي اخترع المحراث والنار والسيارات والقطارات والطائرات والسفن والبنسلين والاسبرين والكوكاكولا والنرجيل والكلينكس، وهو الذي عشقَتَه عبلة ولم تَعشق عنترة، فلم يُعرها أدنى اهتمام ولم يمنحها نظرة إيمانا منه أن إحلال التأمل العميق والخلق محل الطقوس الذهنية الإرثية والشعوذات الفكرية التقليدية التكرارية، يأتي أولا في جدول أعمال زعماء الأدب الحديث الرواد، أما قضايا العشق والغرام والوصال فهي بند محذوف باستمرار... فهل ستسارع الأكاديمية السويدية بعد هذا التنويه القصير العاجل إلى تصحيح أخطائها، أم أنها ستستمر في ضلالها المبين؟

مجلة (الدوحة) شباط / فبراير 1984

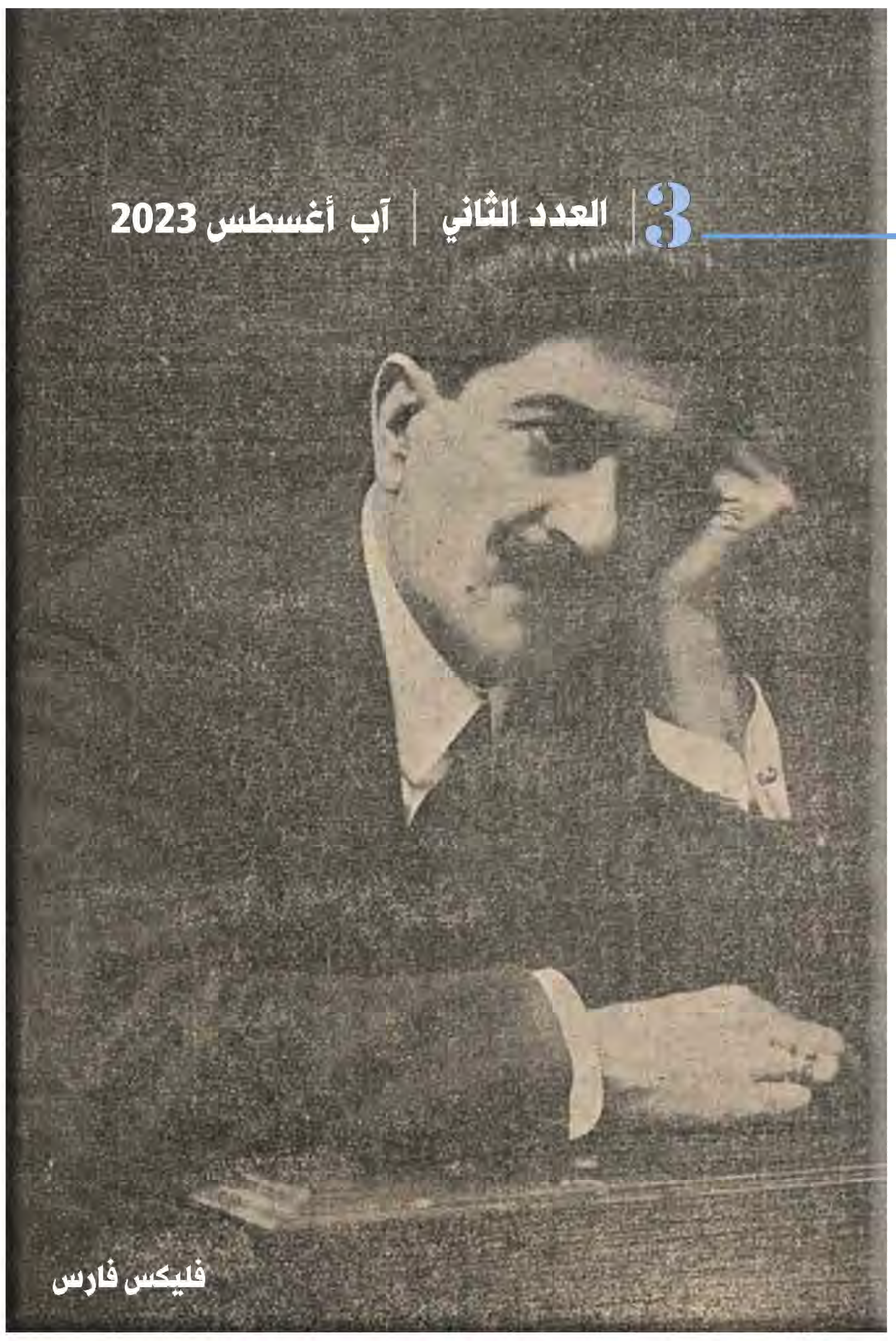
فليكس فارس

أرض الميعاد لكل شعب.. وكل شعب يئن فيها مظلوماً:

سوريا

بقلم: فلكيس فارس

فليكس فارس المحامي والشاعر والكاتب الذي عاش سنواته الأخيرة بعيدا عن وطنه سورية وتوفي في الإسكندرية عام 1939 يكتب قبل قرن ونيف مرثية للعذاب السوري تلامس كل العصور

ما بين آسيا الصغرى للشمال، والفرات والبادية للشرق، وقسم من بلاد العرب للجنوب، وبحر الروم للغرب تمتد سوريا بسلسلة جبالها متدرجة من الغرب حتى تنتهي على بحر الروم، وممتدة من الشرق حتى تلامس نهر الفرات عند شماله ورمال صحراء الشام عند جنوبه.

وهذه السلسلة التي تمتد بطولها من آسيا الصغرى حتى بلاد العرب، من طوروس الفاصل حتى الصحراء الجافة، تظهر للناظر بأغرب حركات الطبيعة وأجمل انتساقها، فهي تحاذي خليج اسكندرونة حتى أنطاكيا، ثم تتجه نحو الجنوب الشرقي حتى بعلبك، ومن هنالك تتقطع بتلال متتابعة وتمد ذراعيها لتصافح بحر الروم بجبلي لبنان وأنتي لبنان.

ومن قرب الشاطئ تمد جناحاً كبيراً ينتهي بالكرمل الواقف عمودياً على صفحة الماء، ثم ترتفع على مشهد منه قمة الطور لتسود التلال العديدة الواقفة بعلو متدرج حتى تصل نقطة اختفائها على الأرض القاحلة، على الرمال المحرقة، على الصحراء.

تلك هي سوريا وفيها حلب ودمشق وبيروت وأورشليم: المدائن الأربع التي تقف كالعواصم لما حولها، وعليها مدار النظر في مستقبل سوريا وحياتها. هذه البلاد العزيزة التي رأينا فيها نور الحياة وشاهدنا على قممها نور الدستور، لهي أكثر بلاد الدولة استعداداً للمستقبل المجيد، إذا كان أهلها كأرضها وقلوبهم كأنهارها.

هذه البلاد التي تخط بجبليها الكبيرين أثلام الأودية العميقة وتُطوق السهول لترسل إليها ماء الحياة، هذه البلاد تجمع بوحدتها من أنواع الأراضي ما لا تملكه البلدان العديدة بتفرقها على كل الأقاليم.

هنالك سُهول الحر وهنا جبال القر، هنالك السفوح المعتدلة وهنا القمم الناطحة أطراف الغيوم. فأرضنا منبت كل ما يجتمع من الطبيعة في مملكة النبات، وكل ما تطلب الألفة الكاملة من أنواع العقول واستعداد الأجسام. فإذا أوجدت لنا السهول رجال القناعة والعمل، دفعت لنا الجبال بسيلٍ عرم من أهل الفكر والأطماع، وقدمت لنا الأوساط جيشاً من بني القناعة وصفاء الذهن. لنا السنديان والكرم والأزهار. لنا القوة والفائدة والجمال.

هذه سوريا التي نراها مملوءة من عناية الله لا نكاد نقلب صفحة من تاريخها ما لم نجد عليها لطخة سوداء نَفثها الإنسان من مظالمه ومن أطماعه. هذه البلاد الجميلة كانت منذ البدء أرض الميعاد لكل شعب، وكل شعب فيها يئن مظلوماً كأنه منفي غريب في وادي الدموع. كل عنصر كان يظهر على الأرض لم يتوار من صفحة الوجود، قبل مروره بسوريا، وإبقائه فيها أثراً شيقاً.

كل قافلة من رجل الإنسانية تركت على أرض سوريا تائهاً، وكل معسكر غاز ترك بقية متمردة، وكل حاكم فيها أبقى عليها سلالة تطمح إلى الحكم، وهكذا لا تمرُّ أبصارنا هنيهةً على أرضها ما لم نجد في أصغر أقسامها خليط اليهود والعجم واليونان والروم والإفرنج والعرب. وفيهم الظالم والمظلوم، المستبد والملتجي، العناصر الباكية والعناصر الضاحكة، والأقوام التي تتعصب وتضرب والأقوام التي تتعصب وتحمل الويل. فيهم التركي والعربي البدوي، النصراني والدرزي، السني والمتوالي، السامري والكلبي واليزيدي وكل هذه العناصر تَظهر للمفكر كمزيج هائل من الخير والشر، من التسامح والجور، من الإخلاص والكذب، من الشهامة والدناءة. من الإيمان بالله والكفر به.

كيفما قلّبت النظرَ في هذه البلاد العزيزة، تجد آثار الجور وبقايا الحروب القومية الدينية، سرّح أبصارك على شاطئ بحر الروم من صيدا إلى يافا إلى أورشليم، وقِفْ قليلاً على أطلال اليهودية القديمة، واتبع حدود البلاد حتى بلاد العرب وآسيا الصغرى حتى برية الشام وأرض حلب، فلا تتجاوز أبصارك هذه الأماكن قبل أن تمتلئ من مشاهد الخرائب والأطلال في كل مكان دلالةً على الجهل وترفّع الإنسان عن أن يكون أخا للإنسان: لقد شاهدت "صورْ" أول بحارة تجارية وفتحت موانئها يد الاجتهاد، فهدمتها أيدي المظالم. وبنى اليونان مرافئ لوقاية المراكب فألقتها الحكومة البادئة في اللجج. وكانت بادية الشام جنات البلاد وذخر الخلفاء فأصبحت أرجاء يأوي إليها المتشردون منذ القرن السادس عشر حتى اليوم.

"صور" و"صيدا" تلك الأماكن التي انبثقت منها تجارة العالم لم يبق من أهلها غير ذِكر مُظلمٍ يكاد يكون الحلقة المفقودة لتمدن الإنسانية. أنطاكيا وحمص والرملة وكل هذه المدن القديمة قد أصبحت طللاً يبني فوقه المظلومون أكواخهم ويتوه على رماده بنو الفقر والشقاء.

من جعل هذه الأرجاء المملوءة بمبادئ الأمجاد عفراً تترفع عنه الأرجل ومتهدمات ينعق فيها البوم؟ من هوى بذلك المجد غير الحروب؟ تلك الآفة الهائلة التي تتولد من الأطماع والتعصب والجهل، ولا تموت إلا على أطلال القصور أو فوق قبر ظالم أو عند الرماد الذي يغطي الشعوب المنقرضة. وأي زمان خلت فيه سوريا من طامع يستثمرها أو سفّاح يقود أبناءها بالسياط وبالسيف؟ من تحت حكم الجمهوريات الرومانية إلى حكم قناصلها إلى جور الإسكندر وأحكام بومباي، ومن تسلّط السلجوقيين إلى عصا أباطرة الغرب الحديدية، ومن العرب إلى يد الإفرنج دُفعت شعوب سوريا كالعبيد وسيقت كالنعاج، وهذه الأرض المزهرة المثمرة استثمرها اليونان وهدمها العرب واستعبدها الإفرنج. إنها لبلاد تضم كلّ قوى الحياة. البلاد التاعسة التي ساطتها كل العصور وداست على قلبها كل الشعوب ولم تزل تتنفس وفي عروقها دم وفي صدرها حياة.

لا يكاد يوجد مكان كسوريا تتجلى فيه عظمة الخالق في بدائع خلقه وضلال الإنسان في آثار تعصبه وقساوته وضلاله. لا توجد بلاد حملت كسوريا استبداد الملوك العديدين وبربرية الجنود وعواصف الحروب.

لقد تغيّر وجه سوريا مئة مرة منذ اثني عشر قرناً وتتابعت الحكومات العديدة على هذه البلاد، وكل واحدة منها تدفع أقوامها شوطاً بعيداً عمن تقدمها في سبيل المظالم والاستبداد. وقد كانت بلادنا محطاً لإعصار الشعوب من كل جهة، من الشمال ومن الجنوب، من قفر الرمال ومن قفر الثلوج، من الحجاز ومن بلاد التتر وكل هؤلاء الأقوام لم يجتازوا سوريا إلا وأبقوا عليها أثر العنف ودلائل الدمار..

.. وبعد أن أتى الكاتب على ذكر الغزاة الفاتحين الذين اجتاحوا في سورية قال: (1)

وفي العاشر من تموز سنة 1324 (2) جاءنا فاتح جديد بلا حملة ولا سيف. جاءتنا فتاة تركية بجناحها الذهبي وابتسامتها الخلابة لتُجفف الدموع التي أسالها أبوها القاسي. ظهرت ابنة الترك لتضمد جراح سوريا وقد سبرت الأجيال قروحها إلى أقصاها. أو بالحري جاءتنا فتاة الحرية وهي ابنة العالم كله لا تنتسب لأمةٍ ولا لشعب دون أخيه.

جاءت مُحررة الإنسانية من قيودها ومطلقة العناصر من أوهامها والأديان من تعصباتها. ملاكٌ في شماله غصن السلام، في يمينه قبس النور نشاهد على شعاعه ما أخفته عنا ظلمات القرون، فلننظر إلى مجاهل أمراضنا نظرة الشجاع إلى جراحه، فإن الحرية لا تشفي ولكنها تعطي العليل حرية الشفاء.

سوريا التي نراها مملوءة من عناية الله لا نكاد نقلب صفحة من تاريخها ما لم نجد عليها لطخة سوداء نَفثها الإنسان من مظالمه ومن أطماعه.

كل قافلة من رجل الإنسانية تركت على أرض سوريا تائهاً، وكل معسكر غاز ترك بقية متمردة، وكل حاكم فيها أبقى عليها سلالة تطمح إلى الحكم

أي زمان خلت فيه سوريا من طامعٍ يستثمرها... أو سفّاح يقود أبناءها بالسياط وبالسيف؟

هوامش:

(1) هكذا ورد في الأصل المنشور في مجلة الزهور.

(2) يقصد ولادة حركة (تركية الفتاة) الإصلاحية التي قادت تمردا ضد السلطان عبد الحميد الثاني، وكان الكاتب يعلق آمالا عليها كما يبدو (العربي القديم)

مجلة (الزهور) العدد (6 -7) آب / أغسطس 1910

طه حسين في دمشق مُحاضراً:

العالم العربي مَدين لسوريا بأجوَد ما عنده من شعر

رئيس مجلس الوزراء صبري العسلي يُقلّد طه حسين وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة

من مراسل (الآداب) سعد صائب:

يبدو أن ثمة لحظات من المتعة والفرح تجتاح المرء – على حين غرة – فتوقظ في ذاته هذا التواصل الروحي، وتسمو بشعوره، وتفتح له آفاقا نيرة، وتشبع حاجته إلى المعرفة. تلك حقيقة لاشك فيها تنطوي ما يعتلج في نفس المرء من تشوّف وتطلّع نحو ما يبهجه ويخصبه، ويهيء له الغذاء الروحي والفكري الذي يغذي عناصر حياته وينميها.

هكذا كانت الحال حين زار عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين سوريا، وأَمّ دمشق إذ أتاح لنا هذه اللحظات الممتعة، وخلق لنا هذا الجو المعبّر الذي ارتفعنا فيه فوق ذواتنا، واستروحنا فيه نفحات من عبقريته وعبقا من إبداعه. ولقد استقبلته دمشق حكومة وأدباء ومثقفين استقبالا رائعا يليق به، وراح أدباء ممن أحبوه وتتلمذوا على أدبه، يمهدون لهذا الاستقبال بمقالات يتحدثون فيها عما قدمه للأدب العربي من خدمات. وأخال أن هذا التماس الواعي مع ما قدمه طه حسين للأدب والفكر، هو الذي ألهب إحساس الجماهير التي غص بها مدرج الجامعة السورية، والتي اندفعت بقلبها وعقلها تستمع إليه في محاضرته التي يحدثهم فيها عن: "بعض خصائص الشعر القديم في سوريا"

استهل الدكتور طه حسين محاضرته، بنقل تحية مصر إلى شقيقتها سوريا، وانتقل بعد ذلك إلى التحدث عن خصائص الشعر العربي فيها، ذاكراً أن سوريا لم تحب المجون في الأدب قط، وإنما هي محبة دائما للجد، حريصة أشد الحرص على الصراحة، لا تحب أن تتخذ الأدب وسيلة إلى لهو أو عبث،، وهي تمتاز بهذا بين الأوطان العربية كلها امتيازا قويا ظاهراً. ومع ذلك فقد حاول المجون الأدبي ان يلم بها، وأن يستقر فيها وقتا ما، ولكنه لم يستطع أن يطيل المقام، وإنما طرد منها أعنف الطرد وأشنعه.

ثم ألقى نظرة على الشعر أيام بني أمية فلاحظ أن المجون والدعابة والغزل على اختلاف ألوانه، سواء منه الغزل العذري والغزل الآخر الصريح إنما كان كل هذا مستقراً في الحجاز وحده؛ وذكر الد كتور طه حسين أنهم لم يكتموا حبهم وانما جهروا به داحضاً قصة صاحب « الاغاني » ألذي تزعم ان المجنون وشعره من اختراع الامويين، وان أميرا أموياً أحب فتاة وكره أن يظهر حبه فاخترع قصة المجنون؛ وأشار العميد إلى خلفاء بني أمية بأنهم كانوا يضيقون بمجون الحجاز وبالشعراء الذين يتبعون الغانيات إذا شهد الموكب؛ وبالمجون الفاحش المتفشي في المدينة؛ ولذلك نُفي الأحوص بن محمد من المدينة لإسرافه في الغزل وفي المجون بعد أن شهر به» ودل المُحاضر على الخاتمة التي انتهى إليها شعر المجون في الشام، بالمأساة التي آل اليها الوليد بن يزيد، الذي قتل لأنه أراد أن يحمل اهل الشام على ما لم يعتادوا عليه. ثم تطرق إلى انتقال الغزل الماجن الى العراق فقال «إن اكثر الشعراء الماجنين في صدر خلافة بني العباس كانوا من الموالين، وليسوا من العرب» وضرب ذلك مثلا بشار ومطيع الى أبي نواس الماجن الرائع، الذي قال صاحب الاغاني إنه اخذ معانيه في الخمرة عن الوليد بن يزيد، وقال ان حظ الشام من الشعر في القرن الأول الهجري كان ضخماً في الشمال ضئيلا في الجنوب، وذكر الأخطل كدليل على حظ شمال الشام من الشعر؛ وقال إنّ هجاءَه كان موجعاً لكنه كان عفيفاً غير فاحش كهجاء جرير، لأن الشاعر اختاره بنفسه قبل ان يترك هذا الاختيار لغيره، وهو يمتاز بالعفة والوقار والرصانة؛ والمحافظة على الرصانة العربية في هجائه.وهو حريص على أن يصنع شعره ويجوّده وان يخضعه للتمحيص ولا يظهره إلا بعد أن يرضى عنها و يطمئن إليه»

وبعد أن ينتهي من عرض هذه الجوانب من الشعر في سوريا والعراق، يمضي في القول عن التجديد في الشعر العربي فيؤُكد انه نشأ في الشام، وقد أنشأه ابو تمام «لأنه ان صاحب فن خاص لم يأخذ فنه عن أحد؛ إنما ابتكره لنفسه ابتكاراً، ولهذا سخط القدماء على شعر ابي تمام، وأجمعوا على أنه مخالف عمود الشعر » وبعد أن يشيد بما اتصف به أبو تمام من تجديد في الشعرسماه «الكلاسيك الجديد » وإنشائه مذهباً في الشعر لم يخرج فيه على أصول العربية القديمة؛ ختم العميد محاضرته بقوله: « ولو وقف الشعر السوري عند هذا الحد لما اهتممت به ولكنه أضاف إلى الشعر العربي ثروة لم يُضفها إليه شعرآخر، ولم تستطع الآداب العربية الموروثة كلها أن تضيفه إليه، وهي التي ابتكرها أبو العلاء المعري، وكلنا يعرف أن أبا العلاء كان تلميذاً للمتنبي في فنه أولاً، وفي تشاؤمه ثانياً، ولكننا لا نستطيع ان نتردد في القول: إن أبا العلاء هو الشاعر العربي الذي لم تعرف له الأمة العربية نظيراً منذ قيل الشعر العربي فيها إلى الآن، وأكاد أقطع بأنه الفيلسوف الاسلامي الحق الوحيد، ذلك بأنه جمع بين فلسفة العقل وفلسفة الحياة العملية»

فإذا لوحظ أن سورية هي التي أعطت العام العربي أول من حاول تجديد الشعر في الاسلام، متأثرا في ذلك زهيرا في الجاهلية وهو الأخطل، وهي التي أعطت الشعرالعربي أول من أنشأ في الشعر فنا جديدا وأقام هذا الفن على مذهب خاص له في الجمال الفني وهو أبو تمام، وإذا لاحظنا أن سورية هي التي أعطت أعمق شاعر فليسوف، وأعظم فيلسوف شاعر نبحث عمن نقيسه إليه في البلاد الأجنبية وفي الآداب الأجنبية فلا تستطيع أن نقيسه إلا إلى اثنين جمعهما هو: أحدهما الفيسلوف (أبيقور) عند اليونان، والآخر هو فيسلوف شاعر هو (لوكريس) عند اليونان، ولا أجد في العالم العربي ولا في الآداب الحديثة من استطيع أن أشبّه به أبا العلاء. إذا لاحظنا أن سوريا قد اعطتنا هذا كله الى الشعر العربي، استطعنا - وأنا أؤكد لكم انني لا اقول هذا مصانعاً لسوريا او تمدّحاً أمامكم لأني بينكم، وإنما هذا الكلام الذي أعلمّه لتلاميذي في مصر، وأكتبه كلما أتيح لي أن أكتبه، استطعنا أن نقول من غير مبالغة، وفي غير إسراف وفي غير تكثّر ولا غلو، إن العالم العربي الإسلامي مدين لسوريا بأجود ما عنده من شعر.

وبعد أن أنهى الدكتور طه حسين محاضرته، ألقى وزير المعارف الأستاذ رئيف الملقي كلمة أشاد فيها بالمُحاضر ووصفه بأديب العصر، ثم تقدم دولة الأستاذ صبري العسلى رئيس مجلس الوزراء، وقلده وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة، ورد العميد على هذه العاطفة بكلمة رقيقة عبر فيها عن شكره وصادق امتنانه، وانتهت هذه التظاهرة الكبرى التي لم تشهد دمشق لها مثيلا.

مجلة (الآداب) يونيو 1955

طه حسين: إن أبا العلاء المعري هو الشاعر العربي الذي لم تعرف له الأمة العربية نظيراً منذ قيل الشعر العربي فيها إلى الآن

الجامعة السورية
رئيس الجامعة السورية
يتشرف بدعوتكم لاستماع المحاضرة التي يتحدث فيها عميد الأدب العربي
معالي الدكتور طه حسين
حول : بعض خصائص الشعر العربي القديم في سورية
ناقش المحاضرة على مسرح الجامعة الكبير في تمام الساعة الثامنة والنصف من مساء الب
في ٨ من رمضان سنة ١٣٧٤ الموافق ٣٠ من نيسان سنة ١٩٥٥
— الحالة شخصية —

دعا رئيس الجامعة السورية في الأسبوع الماضي إلى المحاضرة التي سيلقيها الدكتور طه حسين حول «بعض خصائص الشعر العربي القديم في سوريا». وكانت الدعوة ببطاقة من جنس بطاقات الأعراس دعاه فيها «عميد الأدب العربي». ورأى الناس هذا اللقب، ورأوا الأزمة المصطنَعة في توزيع البطاقات، وسمعوا طبول الدعاية الضخمة التي قُرعت لهذه المحاضرة، فحسبوا أنهم سيلقَون فيها ليلة العمر؛ فتسابقوا إليها وازدحموا عليها، وبيعت البطاقة بليرة، وظنّوا أن الدكتور سيُريهم السُّها (1) ويكشف لهم أميركا فإذا هو يريهم القمر ويكشف لهم إسبانيا.

(1) «السُّها» نجم صغير كان العرب يمتحنون به أبصارهم، فمَن شاهده عَدُّوه قوي النظر. وفي أمثالهم: «أُريها السُّها وتريني القمر»

علي الطنطاوي
من مقال نشر في أيار/ مايو 1955

حول الوضع الادبي في سوريا

مخلصون .. ومزيفون !

بقلم محيي الدين صبحي

«السباعي .. وعبد القدوس .. وادريس لبنان .. والقباني .. يهددون القيم السامية ويشكلون خطرا يزداد، لاتساع رقعة قرائهم . »

ذلك هو الحكم الادبي الذي نشرته مجلة « الاحد » على لسان الاستاذ شوقي بغدادي امين سر رابطة الكتاب العرب السورية في عددها ٣٠٢ من السنة السابعة . وقد يتساءل القارىء بعد قراءته عن عدة اشياء منها :

١ ــ ما هي القيم الادبية والثقافية للهيئة التي سمحت لنفسها باطلاق هذا الحكم ؟

٢ ــ ما هي المعتقدات الفنية والفكرية التي يصدر عنها هؤلاء ، والتي جعلتهم ينظرون الى غيرهم من الادباء كمهددين للقيم السامية ؟

٣ ــ ما هي مكانتهم في خط سير الحياة الفكرية والفنية في تاريخ الادب المعاصر ؟

ان الاتجاه الماركسي يقيد الاديب في حدود تصوير الواقع وتضمين العمل الادبي تطور الحياة الاجتماعية في حدود نضال الطبقات لبناء حياة احسن وافضل .

اما الالتزام فيقتضي ان يصدر الاديب في عمله الادبي عن الموقف الاخلاقي الذي يقفه الكاتب حيال العالم . وبهذا المعنى يكون الاديب الماركسي ملتزما ولا يصح العكس ، اي ان يكون كل ملتزم اديبا ماركسيا .

مثل اوسكار وايلد وسومرست موم وهنري ميلر وارنست همنغواي وستيفان زفايغ قد اصبحوا كتابا عالميين ، قوبلت اثارهم من معاصريهم بالتصفيق والاحترام لانها صدرت عن حياة كتابها وانعكاس الواقع العام على فرديتهم الخلاقة .

ومن هنا نقول بامكان وصول ادبائنا امثال الدكتور سهيل ادريس واحسان عبد القدوس ويوسف السباعي الى اعمال ادبية على مستوى عالمي من خلال موقفهم من الواقع وتفاعل فرديتهم معه . ان هذا الرفض للاخرين يظهر اكثر وضوحا في موقف الكتاب الماركسيين السوريين الذين تجمعوا تحت اسم رابطة الكتاب العرب ، فما هي هذه الرابطة وماذا قدمت للادب السوري ثم العربي؟

لا يملك من يعرف حقيقة اوضاع الادب والادباء في سورية الا ان يبتسم استخفافا واستهانة . فعندنا متعلمون يعدون انفسهم مثقفين ، وناشئون اصبحوا اساتذة وموجهين ، وكل من كتب عن الشعب (تلك الكلمة العريضة) عدّ كاتبا تقدميا ، وكل من اقتبس عن بليخانوف او ماوتسي تونغ دخل في عداد الناقدين واصحاب فلسفة الفن ..

ومثل هذا الموقف ولا شك ، يجر الى خيانة الكاتب لفنه وانتاج الاخرين في سبيل ارضاء حزب من الاحزاب . ولذلك نرى في سورية كتابا على مستوى الشعارات ونفتقد انتاجا على مستوى المبادىء وروح العصر الذي نحياه . فرسالة

القضية

حول الوضع الأدبي في سوريا:

مُخلصون ومزيّفون!

بقلم: محيي الدين صبحي

معارك الأيديولوجيا في الأدب السوري لم تتوقف منذ خمسينات القرن العشرين فهل استفاد الأدب منها أم كان ضحية لها؟

" السباعي... وعبد القدوس... وادريس لبنان.. والقباني.. يهددون القيم السامية ويشكلون خطرا يزداد لاتساع رقعة قرائهم " ذلك هو الحكم الأدبي الذي نشرته مجلة (الأحد) على لسان الأستاذ شوقي بغدادي أمين سر رابطة الكتاب العرب السورية في عددها (302) من السنة السابعة. وقد يتساءل االقارئ بعد قراءته عن عدة أشياء منها:

1- ما هي القيم الأدبية والثقافية للهيئة التي سمحت لنفسها بإطلاق هذا الحكم؟

2- ما هي المعتقدات الفنية والفكرية التي يصدر عنها هؤلاء، والتي جعلتهم ينظرون إلى غيرهم من الأدباء كمهددين للقيم السامية؟

3- ما هي مكانتهم في خط سير الحياة الفكرية والفنية في تاريخ الأدب المعاصر؟

إن الاتجاه الماركسي يقيّد الأدب في حدود تصوير الواقع، وتضمين العمل الأدبي تطور الحياة الاجتماعية في حدود نضال الطبقات لبناء حياة أحسن وأفضل. أما الالتزام فيقتضي أن يصدر الأديب في عمله الأدبي عن الموقف الأخلاقي الذي يقفه الكاتب حيال العالم، وبهذا المعنى يكون الأديب الماركسي ملتزماً ولا يصح العكس، أي أن يكون كل ملتزم أديباً ماركسياً. فإذا تناولنا أعمال الدكتور سهيل إدريس وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي ونزار قباني، وجدنا أن كلا منهم منسجم في إنتاجه مع الموقف الذي يقفه من الوجود، أما إذا تناولنا كتابات الكتاب الماركسيين فإننا لا نظفر منهم أنفسهم بغير مجموعة اعترافات، حصيلتها أنهم لم يستطيعوا حتى الآن تحقيق المفاهيم الماركسية في الأدب، وكل ما استطاعوا تحقيقه هو اتهام الأدباء الآخرين بأنهم مخرّبون ويُشكلون خطراً على حياتنا النضالية.

● ما هذه الرابطة؟ وماذا قدمت للأدب السوري؟

ولعل ظاهرة محاربة الاتجاه الجمالي في الأدب، ظاهرة يكاد ينفرد بها هؤلاء النفر الذين أعمتهم عقيدتهم عن رؤية بقية الأشكال الفنية الجيدة التي تعالج واقعنا بالتحليل والتوجيه حسب نظرة أصحابها إلى هذا الواقع. فكتّاب مثل أوسكار وايلد وسومرت موم وهنري ميلر وآرنست همنغواي وستيفان زفايغ قد أصبحوا كتاباً عالميين، قوبلت آثارهم من معاصريهم بالتصفيق والاحترام لأنها صدرت عن حياة كتابها وانعكاس الواقع العام على فرديتهم الخلّاقة. ومن هنا نقول بإمكان وصول أدبائنا أمثال الدكتور سهيل ادريس وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي إلى أعمال ادبية على مستوى عالمي من خلال موقفهم من الواقع، وتفاعل فرديتهم معه. إن هذا الرفض للآخرين يظهر أكثر وضوحا في موقف الكتّاب الماركسيين السوريين الذين تجمعوا تحت اسم رابطة الكتاب العرب، فما هي هذه الرابطة وماذا قدمت للأدب السوري ثم العربي؟

لا يملك من يعرف حقيقة أوضاع الأدب والأدباء في سورية إلا أن يبتسم استخفافا واستهانة؛ فعندنا متعلمون يعدون أنفسهم مثقفين، وناشئون أصبحوا أساتذة وموجهين، وكل من كتب عن الشعب (تلك الكلمة العريضة) عُدَّ كاتباً تقدمياً، وكل من اقتبس عن بليخانوف أو ماوتسي تونغ دخل في عداد الناقدين وأصحاب فلسفة الفن.

ومثل هذا الموقف ولا شك، يجر إلى خيانة الكاتب لفنه وإنتاج الآخرين في سبيل إرضاء حزب من الأحزاب، ولذلك نرى في سورية كتّاباً على مستوى الشعارات ونفتقد إنتاجاً على مستوى المبادئ وروح العصر الذي نحياه. فرسالة الكاتب الذي يريد أن يكون تقدمياً ليست تضمين العمل الأدبي نظرة الكاتب إلى الحياة والأحداث، بل هي سرد الأحداث بشكل يتلاءم ومعالجة فكرة تلقاها من الخارج ولم يستطع أن يتفاعل معها. وعلى هذا خسر الأدب في سورية حتى الكتاب الموهوبين كالأستاذ سعيد حورانية؛ فإن نظرة إلى إنتاجه قبل خمس سنوات – قبل أن يلتزم بشكل إرادي – تريك كيف أنه فقد الكثير من عناصر إبداعه وحرارته وصدقه... أما الكاتب الذي أراد أن يحتفظ بأصالته وصدق فنه، فقد انسحب من بينهم بعد أن فضحهم في رواية (مكاتيب الغرام). (1)

● سيطروا على وسائل النشر في سورية!

لقد كان أثرهم ضاراً للأدب السوري بشكل لا نستطيع أن نقدره إلى الآن. فمنذ أن دخلت بدعة الواقعية [الاشتراكية] عدمنا الصدق في أدب الناشئة. وهم لكثرتهم فقد سيطروا على طرق النشر في سورية، فطووا ما يكرهون، ومنعوا المواهب من أن تنشط والأزهار أن تتفتح، وتطاولوا على كبار كتابنا يُلقونهم بتهم الرجعية والفجور، فانسحب من الصحف السورية على التوالي كل من الأساتذة: عبد السلام العجيلي، سعد صائب، نزار قباني. وانسحب معهم بطبيعة الحال كل الناشئة التي ترى في الفن حرية الفكر والروح.. وبقي هؤلاء يعيثون في الفن الفساد، وما لبثوا أن تطاولوا على بقية الأقطار العربية في كتابها ومفكريها.

● شاعر التراكتورات!

كل ذلك في حقل الفكر والقصة، أما في الحقل الشعري فقد كان الطرح الشعري الوحيد هو ديوان شوقي بغدادي (أكثر من قلب واحد)، ولعل أهم خصائصه ضيق الخيال وانعدام الصور ويبوسة الصياغة.. وهي خصائص فريدة في بابها وقلما تجتمع في شعر واحد من الشعراء.. رغم أنه كان تابعاً في مدرسة نزار؛ فإن إقحامه أفكار لم يتمثلها بعد، جعل النظم يغلب على شعره، وتحول إلى شاعر تراكتورات، كما ورد في قصيدته (أغنية في موسكو):

ونهضتْ معامل واستطالت مداخن وفازَ بالصلب كير
دخانها.. كأنما كل صدر أرسلَه.. فهو اللهاث الكبير
وانسرح التراكتور في كل أرض تغرف كفاه ويغني الهدير (2)

● أدب المرأة "الفاجر"!

إن نزار قباني يقف اليوم في الطليعة من شعراء العربية المبدعين، فإذا قيل " المدرسة النزارية " و" المرأة النزارية " و" الصور النزارية " وإذا قيل " طوق الياسمين " و " وجودية " و"حبلى" و" خبز وحشيش وقمر" و" قصة راشيل شوارزنبرغ " يعرفها كل مثقف أوتي الذوق وعدم التحامل. ومع ذلك يقول شوقي بغدادي في نفس العدد من مجلة (الأحد):

" لنبدأ قبل أن يستفحل الأمر، ويحل أدب المرأة الفاجر محل الأدب الذي يجب أن يرتفع إلى مستوى الأحداث، ويكون انعكاساً لحياة الناس الشرفاء.. قبل أن ندخل في عصر ينظم فيه شاعر كالقباني القصيدة التي لم تُنظم بعد في... الطمث "

عفو مجلة (الآداب) وعفو قراء (الآداب) الكرام، ولكنها كلمات الرجل غفر الله له. وإنني أعلن لكل الشرفاء الذين يعيشون أحداث نضالنا، أننا سنقاوم الخيانة الفنية وكل قيم الظلام التي تضع الخلق الفني في حذاء يلقب بنظرية من النظريات. إننا سنحارب البشاعة والقبح والسطحية.. لأن كل هذه العناصر لم تقدم لفكرنا ولا لضمائرنا أشياء عميقة ولا صحيحة.. ولسوف نكرس حياتنا لتمجيد الفن والجمال وكل ما يعمل على بعث حضارتنا وتأكيد وجودنا العربي.

دمشق – محيي الدين صبحي (ليسانس آداب).

شيوعيون يصفون شعر نزار قباني بـ "أدب المرأة الفاجر".

شوقي بغدادي: لنبدأ قبل أن يستفحل الأمر (....) وندخل في عصر ينظم فيه شاعر كالقباني القصيدة التي لم تُنظم بعد في الطمث!

منذ أن دخلت بدعة الواقعية [الاشتراكية] عدمنا الصدق في أدب الناشئة

خسر الأدب في سورية حتى الكتاب الموهوبين كالأستاذ سعيد حورانية؛ فإن نظرة إلى إنتاجه قبل أن يلتزم تريك كيف أنه فقد الكثير من عناصر إبداعه وحرارته وصدقه

هوامش:

(1) الكاتب المقصود هو حسيب كيالي مؤلف رواية (مكاتيب الغرام) الذي انسحب من الرابطة مبكرا وسخر من أجوائها وأفكار أعضائها في هذه الرواية. (العربي القديم)

(2) صدر عن دار الفكر الجديد في بيروت عام 1955 (العربي القديم)

مجلة (الآداب) اللبنانية - كانون الأول/ ديسمبر 1957

القضية

هل كان الأدب السوري ضحية الأيديولوجيا؟

مصعب الجندي

ماذا خلفت تلك المعارك؟

لخّص الأديب محي الدين صبحي أمراً أو حالاً لا أستطيع الدخول في تفاصيله، ولكن في حدود اطلاعي ومعرفتي الكافية للبعض ممن خاضوا غمار معارك الإيديولوجيا في الثقافة والأدب أمثال شوقي بغدادي وعلي الجندي وحيدر حيدر ونزار قباني.... من الممكن أن أقول أنها لم تكن في بداياتها وبدايات أغلبهم أكثر من طفرات سايرت تيارات كانت مهيمنة في الثقافة العالمية، وأستطيع أن أقول أيضاً أن الكثيرين من أولئك كانوا من التائبين والمنسحبين منها سريعاً وإن لم يصرّحوا بذلك لأنهم اكتشفوا خطأ اليقينية في العصر الحديث.

يبقى أن نسأل ماذا أنتجت تلك المعارك؟ أو بصورة أدق كيف سخرتها السياسة لصالحها، وجعلت السوريّ في حيرة من أمره أين يذهب بإرثه الذي يملأ القصائد والأناشيد والحكايا في مرحلة تكاد تلغي جميع مفاهيم الديمومة والقطع (البتر)، وفي كل القراءات بدءاً من الثقافي إلى الحدث السياسي إلى طبيعة العلاقات ونمط العيش؟

كيف يقيم السوريّ إرثه وارتباطه بالحاضر والمستقبل، باستثناء أولئك "المرتاحين" المقيمين بالثقافة والشعر من خلال إيديولوجيا مُسقطة "إسقاطاً" على الواقع (أو هكذا يدّعون)، والأصل كل الأصل، الناس.. نعم الناس أو العامة في المجتمع، ما هو أثر جميع تلك المعارك عليهم؟ وهل رفعت من سويتهم الحضارية؟ وهل تمكنت من الوصول إلى عقولهم قبل قلوبهم؟

الإجابة بسيطة أليمة، لا ، وليتها لو كانت نعم حتى ولو بصيغة السلب بدلاً من تأتي منظومة سياسية جوفاء تمتص من كل الثقافة مضمونها ودماءها وتتركها مجرد شعارات خرقاء تشرحها كيفما شاءت ضمن منطق جنون الطغيان واستبداده فالحياة والموت والتاريخ والثقافة والشعر، عنده يبدأ وعنده ينتهي. كم أتمنى لو شارك الناس في تلك المعارك حتى لو كانت طفرة لكنها مشاركة بالثقافة في مضمونها.

إني لا أوجه تهمة لأحد هنا، لكنها واقع حالنا في ماضينا اللصيق بحاضرنا. لم يتمكن أدباؤنا وشعراؤنا من الوصول للناس أستثني منهم نزار قباني الذي أعتبره الأهم فيهم لأنه تمكن من أن يُسمع شعره الجاهل قبل المتعلم رغم أني أحب شعر غيره أكثر.

فواز حداد

الأيديولوجيا وتحولاتها في سوريا

في سوريا، هَيمن اليسار بأجنحته المتعددة على الثقافة كان تيار العصر الجارف، فالسياسي والمثقّف والأديب والصحافي لا يكون تقدُّمياً إن لم يكن اشتراكياً

سجلت المرحلة الأيديولوجية في العالم نهايتها مع انهيار جدار برلين، وتساقط اشتراكيات أوربا الشرقية، وانتقال روسيا إلى إنشاء محور بلا اشتراكية ولا ماركسية لم يتحدد بعد. ما يسمح بالنظر بواقعية إلى الايديولوجيا، بعد مرور عدة عقود على وضع حد لها. ان ما يجدد الحديث عنها اليوم، هو استمراريتها بأشكال أخرى في سوريا وغيرها من البلدان التي ما زالت ترزح تحت حكم أنظمة مماثلة.

يمكن القول، إن بداياتها في سوريا كانت مبكرة، مع احتلال الحزب الشيوعي مساحة في الشارع والانتخابات، وما التحق بها من يساريات مشابهة لأحزاب زعمت التوجه الاشتراكي، أحدها حزب البعث، الذي جاء العسكر على ظهره. وإذا كان لهذه الأحزاب من أدوار عقيمة من دون جدوى، فقد لعبتها في الحرب الباردة بانحيازها إلى الكتلة الشرقية ضد الامبريالية العالمية.

كان انتشار الفكر الاشتراكي واسع النطاق، كاد ان يشمل العالم الثالث واغلب قارات العالم، نبعت شعبيته من دعوته إلى العدالة الاجتماعية، والخلاص من الاستعمار والسعي إلى الاشتراكية تمهيدا للانتقال الى الشيوعية. اما الامبريالية فاعتمدت الحرية، تلك التي أهملتها الشيوعية، برفعها شعار لا حرية لأعداء الشعب، أدت إلى لا حرية للشعب.

أدى الخلاف بين الروس والأمريكان، إلى انقسام العالم إلى معسكرين في الحرب الباردة، وكان الصراع بينهما بأسلحة أيديولوجية إضافة إلى الجواسيس. وأصبحت الدول التابعة أبواقاً لهما. تلك ببساطة حكاية الشعوب المرغمة على اعتناق ايديولوجيات، لم تعن لها سوى المزيد من البؤس الإنساني والانخراط في صراع طويل كاد أن يؤدي الى دمار العالم.

في سوريا، هَيمن اليسار بأجنحته المتعددة على الثقافة، كان تيار العصر الجارف، فالسياسي والمثقّف والأديب والصحافي لا يكون تقدُّمياً إن لم يكن اشتراكياً، والأفضل شيوعياً. وكان لسريان اليقين اليساري في الأوساط الأدبية مفعول سحر الشعوذة، واعتبار أدباء اليسار أفضل من غيرهم فكرياً وسياسياً وأخلاقياً، ووُصف خصومهم في الوطن بالرجعيّين والعملاء والخونة والمتآمرين. لو أنَّ أحداً تجرّأ على النظام السوفييتي أو صراع الطبقات لاتُّهم بالجنون. يستحيل أن يغامر مثقّف في إزالة القداسة عن التدين اليساري.

أدى تبادل الفضائح بين المعسكرين، إلى تعرية النظام الشيوعي على الرغم من الستار الحديدي، والكشف عن المحاكمات والسجون والمنافي وأساليب القمع والعسف، كما لا حريات ولا تعبير عن الرأي. لم تعد روسيا مثالا للجنة الموعودة، تلك دعاية لم تصمد. كانت الجحيم على الأرض. كان انعكاسها على الأدب كارثيا، لم يعد التزاما باشتراطات الواقعية الاشتراكية، وتقيد الأدباء بها، بقدر ما كانت الالتزام بالأيديولوجية الشيوعية، تلخصها قضايا التحول الاشتراكي ودكتاتورية البروليتاريا والمادية التاريخية. كان أي نقد لها، يعتبر انحرافا وتحريفا. بات الأدب داعية لسياسات الدولة الشيوعية الأم. ما شكل مأزقاً للمثقفين المناصرين لها في العالم الغربي.

في سوريا، تجسدت مقولات الأيديولوجية اليسارية في كتاب نبيل سليمان وبوعلي ياسين "الادب والايديولوجيا في سوريا" تجلت في تطبيقاتها، وكانت بتصنيف الادباء إلى رجعيين من مخلفات المجتمع القديم، وليبراليين رأسماليين وبرجوازيين صغار. شمل هذا التصنيف عبد السلام العجيلي وألفت الادلبي، ونزار قباني وغادة السمان وممدوح عدوان وزكريا تامر وعلي الجندي وغيرهم، اعتبروا أدباء معادين للتقدم. بينما نجا حنا مينه وسعد الله نوس وعبد الله عبد وغيرهم كأدباء تقدميين كمثال للأدب القويم. بذلك ابتدعوا وصفة للأدب التقدمي ينبغي الاقتداء بها وعدم الخروج عنها، كانت وصفة أيضا للقضاء على حرية الأدب في التعبير.

غررت الأيديولوجيا بالمثقفين، من خلال الاعتقاد بقدرة الاشتراكية على تحقيق العدالة الاجتماعية، والتسليم بقدرتها على تفسير التاريخ والتكهُّن بالمستقبل، والزعم بمعرفة الطريق الذي يسير فيه العالم، وإلى أين يؤدّي؟ أما لماذا أفرزت أبشع نُظُم الطغيان؟ فلا جواب، كان التفكير ممنوعا، فالدولة أسلمت اقدارها للديكتاتوريات. ومهما قيل، كانت إخفاق الاشتراكية، فرصة ضائعة، أهدرت حلم الإنسانية في حياة أفضل، وقصفت أعمار أجيال من البشر.

يشير درس التاريخ إلى عالمنا الذي استهلك خلّفت الأيديولوجيا في بلداننا جذورا ضاربة، فالأيديولوجيات في القرن الماضي؛ النازية والفاشية والستالينية، ومع أنها أصبحت من عتاد ماضيه الأسود، لكنه لم يتخلص منها، وكأن لها تجليات أخرى، طالما أن الدكتاتوريات الصاعدة تفتقد إلى ما يشرعن وجودها واستمراريتها. ففي سوريا لم ترحل الأيديولوجيا، رغم أنها سقطت في بلدانها، النظام بحاجة إليها لتبرير وجوده، فاتكأ على شعارات؛ الصمود والتصدي، المقاومة والممانعة، لم تنفع الا في المسيرات، مشى تحت لافتاتها المتظاهرون.

خلفت الأيديولوجيا في بلداننا جذورا ضاربة في واقعنا وحياتنا وأدبنا، طرأت عليها بعض التحولات تمثلت فيما يدعى"الخطوط الحمراء" ممنوع الاقتراب منها، وفي حال تخطيها أو حتى ملامستها، يتعرض مرتكبها إلى العقاب، تتحدد بأمن الدولة والدفاع عنها، وهيبة الرئاسة، لكنها في الواقع تتناول كل شيء، خاصة في تفسير النيل من عزيمة الأمة، بحيث لا ينجو منها مثقف ولا أديب ولا صحفي أو معلم في مدرسة ولا ممرضة في مستشفى أو بائع جوال... سيجد المنظّرون في مخابرات النظام أيديولوجية مثالية، تعمم على الشعب، كانت شعار "منحبك"، اتخذت من الدكتاتور ملهما للطاعة والخنوع. ولفقوا لها جماهير "المنحبكجية" تهتف له وتفتديه بالروح والدم. بالرغم من سخافة الفكرة وهشاشتها، وعدم علاقتها مع الواقع والسياسة، استطاع نظام منحط البقاء في غفلة عن المنطق والعقل. وإذا كان الاعتقاد السائد من قبل حول الشيوعية أن البلد لا محالة ذاهبة إلى الجنة على الأرض، ففي سوريا بتلويح النظام بجنة على الأرض، تحت راي "منحبك" يرسل الشعب إلى السجون والنزوح والموت تحت التعذيب. بالنسبة للأدب لئلا يحصل التباس بين الأيديولوجيا والالتزام، لا بد من الجواب عن سؤال هل يصحُّ الالتزام في الأدب؟ نعم يصحُّ، ويصحُّ أيضاً ألّا يلتزم الأديب. هذا لا يمنع ذاك. الأدبُ ليسَ دعايةً انتخابية، ولا إدارة الظهر عمّا يعجّ به العالم من قضايا، ولنتذكر أنَّ الأدب والفنّ فضاء من الحرية، علينا ألّا نخسره تحت أي دعوى. فالأمر ليس الالتزام أو عدمه، النضال أو عدمه، بل الإنسان، سواء في رفع الظلم عنه، أو البحث عن منافذ لتحقيق إنسانيته.

الأدب بالضرورة مسيّس، وبالضرورة بلا أيديولوجيا؛ وبالضرورة لا يرتهن إلا للضمير.

د. أحمد عسيلي

اليسار الأكثر صراخاً الأكثر تخويناً

يمكن أن أختلف قليلا مع مل كتبه محيي الدين صبحي قبل أكثر من ستين سنة، لأنه وبشكل عام كل فعل كتابة ينتج عن موقف ما، فكرياً كان أو سياسيا أو دينيا او أدبيا. فالروائي أو الشاعر عندما يكتب نصا هو ينطلق من موقف ما، ومع الزمن سيصنف ضمن مجموعة كتاب آخرين تكتب ضمن نفس الإطار. ربما بزمن محي الدين صبحي في خمسينات وستينات القرن العشرين، كان اليسار هو الأكثر صراخا (وربما حتى الآن) وهو الأكثر تخوينا لمن يختلفون معه، لكن هناك تيارات كانت قبله تتشارك نفس النظرة أيضا، كذلك ظهرت محاولات لكتابة أدب أو رواية إسلامية، وانطلقت من منظور عقائدي وأيديولوجي مختلف مثل تجربة نجيب الكيلاني، الذي حاول أن يكتب رواية بفكر إسلامي، حتى نزار قباني كان يحمل فكرا ثوريا ضد التقاليد، وضد الأيدلوجيا الدينية المتشددة مثلا. لهذا لا نستطيع القول نقول أن هناك كتابة بعيدة عن إيديولوجيا ما تماما. وحالياً هناك كتابات كثيرة في الأدب السوري تعكس موقفاً معينا، فثمة رواية المعارضة ورواية تأييد الدكتاتورية. حتى الموقف الذي هو ضد فكرة التأطير الإيديولوجي للأدب، والذي كان ينادي أن يكون الادب للأدب، هو بحد ذاته موقف إيديولوجي ورؤية معينة للحياة والكتابة.

د. بدر الدين عرودكي

بين الأيديولوجيا والإبداع

رابطة الكتاب السوريين التي صارت عام 1953 رابطة الكتاب العرب، كانت تمثل التيار اليساري الذي يستقي مُثله الأدبية من المبدعات الروسية والسوفييتية

لم يعبأ نزار قباني على إخلاصه لعالمه الشعري الواسع والثري إلا بضرورات الشعر وحده

يعود بنا مقال محي الدين صبحي الذي كتبه في مقتبل حياته الأدبية عام 1957، أي في أوج المد القومي العروبي على إثر العدوان الثلاثي وعشية تحقيق الوحدة السورية المصرية، إلى مرحلة شديدة الخصوبة والحيوية عرفها الأدب في سورية سواء على صعيد الإنتاج في مجال الشعر والقصة القصيرة والرواية والمسرح والنقد الأدبي، أو في مجال التجمعات الأدبية من خلال رابطة الكتاب السوريين التي صارت عام 1953 رابطة الكتاب العرب، التي كانت تمثل التيار اليساري الذي كان يستقي مثله الأدبية من المبدعات الروسية والسوفييتية خصوصًا، ويعلن في منتجات كتابه عن أولوية الاجتماعي التي كانت محاولات تجسيدها فنيًا تتمثل خصوصًا في شعر وقصص شوقي بغدادي ضمن مجموعته "حينا يبصق دمًا" (1956) وقصص سعيد حورانية ولاسيما "وفي الناس المسرة" و"شتاء قاس آخر"، والروايات الأولى لحنا مينة ولاسيما "المصابيح الزرق" و"الشراع والعاصفة"، ثم جمعية الأدباء العرب التي تأسست عام 1957 وضمّت كتاب التيار القومي بالمعنى الواسع للكلمة. وقد رافقت تأسيس هاتيْن الجمعيتيْن على غير ميعاد صدور مجلتيْن في بيروت، الأولى، "الثقافة الوطنية"، التي كانت تعبر عن التيار الذي سوف تمثله رابطة الكتاب السوريين ثم العرب التي تزامن تأسيسها مع صدور المجلة أسبوعية ثم شهرية، والثانية، مجلة "الآداب" التي كانت عبَّرت منذ انطلاقها في كانون الثاني/يناير 1953 عن التيار العروبي الذي حملت جمعية الأدباء العرب بدمشق رايته، مثلما عبّرت عن تبنيها الأدب الملتزم حسب المفهوم السارتري ومقولة الحرية الفردية المسؤولة التي أعلن عنها مؤسسها في أول أعدادها.

من الواضح أن المقال الذي كتبه شوقي بغدادي حول عدد من الكتاب الذين كانوا يهددون في نظره القيَم السامية بفعل رواج كتبهم جماهيريًا، وبسبب ابتعاد أدبهم عن الارتفاع إلى "مستوى الأحداث" وعن أن يعكس "حياة الناس الشرفاء" ومقال محي الدين صبحي الذي كان ردًا عليه، يقدمان، على سطحيتهما وسذاجة التعليل والتحليل فيهما نموذجًا بليغًا عن الكتابات "النقدية" التي ستدور دومًا، ولكن خلال فترة زمنية لم تتجاوز عقد الستينيات، حول الثيمتيْن: الالتزام حسب المفهوم السارتري، أي الكتابة الإبداعية في إطار الحرية الفردية المسؤولة، والإلتزام بمعنى الإلزام كما يفهمه أنصار ما عرف في تلك الحقبة باسم "الواقعية الاشتراكية". ذلك أن من كانوا يعتبرون في تلك الحقبة من كتاب "الواقعية الاشتراكية"، وفي مقدمتهم حنا مينة وسعيد حورانية وشوقي بغدادي خصوصًا، سيتخلون بصورة أو بأخرى في قصصهم ورواياتهم أو في شعرهم، عمليًا، عن هذا الإلزام الذي يكاد يكون حزبيًا. إذ أن حنا مينة الذي أساء التزامه الحزبي إلى "الطروسي"، بطل روايته "الشراع والعاصفة" ـ وهي في الواقع قفزة فنية شديدة الأهمية في الكتابة الروائية في سورية ـ الذي حمله، بعد أن جعل منه وفق منطق الرواية وأحداثها كلها مصدر القيم، على أن يخضع إراديًا لقيم شخصية أخرى، طارئة، صُنِعَت من عجينة مختلفة، ورُسِمَت ملامحها على نحو جعل منها نقيض شخصية الطروسي أساسًا، على الرغم من أن امتيازها الوحيد انتماؤها صراحة للحزب، هذا على الرغم أيضًا من أن ظاهر الأمور أو دفق الرواية، كان يفيد العكس كليًا. لكنه، بدءًا من "الياطر"، سيستسلم إلى ما تمليه عليه بنية الرواية التي يكتبها دون أن الالتفات إلى ما يمكن أن تفرضه ضرورات "حزبية أو أيديولوجية أخرى. هذا في حين أن الطريق الذي سلكه سعيد حورانية كان عكس طريق حنا مينة كما يشير محي الدين صبحي نفسه في مقاله. أما شوقي بغدادي فسوف يتخلى عن التغني بالمعامل والمداخن و"التراكتور" كي يكتب شعرًا يليق بموهبته أكثر مما يستجيب لضرورات الانتماء الحزبي

هذا بخلاف كتّاب التيار الآخر، شعراء وقصاصين وروائيين ومسرحيين، وعلى اختلاف انتماءاتهم السياسية أو نزعاتهم الفكرية، الذين واصلوا الاستجابة لقريحتهم في الإبداع دون أي اهتمام بأية قاعدة خارج إطار الفن الذي يعبرون بوسائله عما يريدون قوله.

لم يعبأ نزار قباني على إخلاصه لعالمه الشعري الواسع والثري إلا بضرورات الشعر وحده، وصار مدرسة، شأنه في ذلك شأن زكريا تامر في القصة القصيرة أو عبد السلام العجيلي في القصة القصيرة والرواية، أو محمد الماغوط في الشعر، دون الحديث عن الجيل التالي بدءًا بالروائي والقاص هاني الراهب والشاعر ممدوح عدوان والشاعر حسان عزت، وليس انتهاء بالروائي فواز حداد وخالد خليفة.

ذلك يعني أنه لم يكن لمعارك الأيديولوجيا المشار إليها في الواقع كبير تأثير لا على تطور الأدب السوري في مختلف المجالات، ولا على جعل هذا الأدب ضحية لها، لسبب رئيس تاريخيًا كان يمكن أن يلعب أحد هذين الدوريْن، يتمثل، اعتبارًا من نهاية ستينيات القرن الماضي، في ضبط فضاء الحرية بصورة حاسمة وراء الشعار الذي كان يملأ شوارع المدن السورية: "لا رقابة على حرية الفكر إلا رقابة الضمير". لقد كان جميع المعنيين بهذا الشعار يعلمون تمام العلم موقع وعنوان هذا الضمير.

..... ومع ذلك

محمد طه العثمان

هل هناك أدب بلا أيديولوجيا

أرخت الإيديولوجيا بظلالها على الأدب العربي منذ القدم، حين أطّرت القبائلية إنسانية الشاعر وجعلته محكوما بعقائدها وأفكارها، وعند ظهور أول نزعة للتمرد عليها من قبل بعض الشعراء قامت بنفيهم وتجريدهم من هذا الانتماء فشردوا وطردوا من القبيلة أي (الشعراء الصعاليك).

هذا الحدث الكبير خلق لدي تساؤل في حقيقة الانتماء، وهل هنالك أدب من دون إيديولوجيا؟ وما هو الحد الفاصل بين الجمالي البحت والأيديولوجي في الأدب؟

حين نريد أن نقدم أدبًا مخلصين للإبداع؛ فلا بدّ حين نعتنق بعض الأفكار أن تتماهى طروحاتنا في بوتقة الجمالي وتنصهر في المكونات الأدبية الجمالية.... وهذا يقودنا إلى توسيع الإيديولوجي على أن كل فكرة يقدمها الكاتب من خلال قناعته ورؤيته إلى العالم هي إيديولوجيا لكن صهرها وتذويبها هما اللذان يخففان من حدة انكشافها للقارئ. وهذا الأمر الطبيعي الذي تعودنا عليها منذ عرفت البشرية الأدب وحتى اليوم هذا.

لكن ماذا عن فرض أفكار محددة على الكاتب وبشكل مسبق وتوجيه قلمها بالترغيب أو بالترهيب... الحقيقة سيكون الأمر راجعا للكاتب نفسه، ومدى مهارته في تطويع ما يملى عليه ليقترب الأيديولوجي من الجمالي لتخف الهوة بينهما، وإلا سينكشف الجانب العقائدي المفروض على الكاتب بسهولة حين لا يستطيع الكاتب صهر هذه الأفكار.

ما طرحته سالفًا يعود بذاكرتي إلى أول مرة أقف فيها على منبر، قبل اثنين وعشرين عامًا، حين كنت طالبًا في الثانوية، وطُلب مني المشاركة في أصبوحة شعرية في المركز الثقافي في مدينتي حلفايا، وكان المركز مقرّا أيضا لحزب البعث، وتحصل فيه الاجتماعات الحزبية في الأوقات التي لا يكون فيها نشاطات أدبية في المركز،

يومها قرأت قصائد غزلية ووجدانية، وبعد الانتهاء من الأصبوحة وقد كان الحضور جلّه من مدرسة الإناث المجاورة للمركز، اعتلى رئيس الفرقة الحزبية المنصة وبدأ بتوبيخنا وتقريعنا كوننا شعراء لا ننتمي إلى قضايا أمتنا ولآلام شعبنا، وكوننا لم نخص القائد الشاب أو الراحل أي قصيدة أو حتى جملة شعرية، هذا الموقف أثّر فيّ بشكل كبير، وجعلني بعد ذلك أحجم عن المشاركة في أي مركز ثقافي يوجد به مقر للحزب في سوريا.

كان النظام غبيًا جدا في هذه النقطة تحديدًا، حين ساهم عن طريق هذا الرجل بجعلي أكره الحزب وعقائده وكل ما يخصه.. والأمر ينسحب على كل مؤسساته التي لم تكن يعرف كيف يدس السم في العسل ليجعل أيديولوجياته الفكرية تمر بذكاء عبر الأدب، أو كيف يجعل لنفسه قاعدة بين الأدباء السوريين المحاولين الانفلات من أفكاره، بل كان فجّا ووقحا بطلبها من الجميع إذا كنت تريد اعتلاء المنبر... وهذا ما جعل المشهد الأدبي السوري بعد ذلك سريع الانقسام، أقلها من أبناء جيلنا حين قامت الثورة في بدايات عام 2011.

لقد جعلت أيديولوجيا الحزب الواحد والاتجاه الواحد والقائد الأوحد من فكر الحزب هو اليقين، والأدب والإبداع هو اللايقين، فمتى وصل الأدب إلى اليقين الخالص والإجابات الجاهزة، وتخلى عن الشك والأسئلة، فهذا يعني أنه فقد سحره وجمالياته.

وهذا ما جعل كثيرًا من الكتاب السوريين قبل الثورة بزمن بعيد يخرجون من هذه العباءة ويهجرون البلد، أو ينشرون كتبهم خارجها، كنزار قباني وبدوي الجبل، وزكريا تامر والكثير غيرهم، لأنهم رأوا إن أكثر ما يضعف النص ويفسده، تدخل الأيديولوجيا الصارمة، إذ يتحول ما يكتبون إلى أدب شعاراتي يروّج لهذا النظام ذي الفكر الإلغائي المتشدد.

أول مقال في حياتي

روميو وجولييت على الطريقة السورية

محيي الدين اللاذقاني

لم أكن قد كتبت حرفا واحدا حين قررت أن أصبح كاتبا، ويبدو أن نظرية (باولو كويلو) تحققت معي، وهي التي يزعم فيها أنك إن أردت شيئا حقيقيا بقوة وعمق، فإن كل ظواهر الطبيعة والكائنات تتعاون معك في تحقيقه.

وقد كنت حين ذلك القرار الخطير في السنة الجامعية الثانية بكلية الآداب بحلب حين كان اسمها "كلية اللغات" وكان لي "قرز مات" في جريدة (الجماهير) بصفحة الأدب عند عبدالقادر عنداني وفي صحيفة (صوت الجامعة) التي أسستها من لا شئ وكنت أشرف على تحريرها واكتب فيها زاوية قصيرة أوقعها بأسم أبو غبشان، وهو اسم من التراث العربي يقال انه كان حارس الكعبة وحامل مفاتيحها قبل الإسلام، لكنه كان سكيرا عربيدا وقد باع المفاتيح في نوبة خمر لقصي بن كلاب حيث صار بنو عبد الدار وبنو شيبة وبقية أحفاده هم السدنة بعد تلك الصفقة صار أبو غبشان مثالا يضرب للصفقات الخاسرة، وصارت العرب تقول في أمثالها: أخسر من صفقة أبي غبشان.

ومع استعدادي لأصبح كاتبا قبل أن أكتب شيئا لافتا أحضرت قبل القلم غليونا فاقعا وبعض التبغ، وكان "البايب" وقتها من علامات الكاتب المميزة قبل ان يرث السيجار ذلك الدور، ثم يتخلى عنه الكتاب لرجال الأعمال، وهكذا بدأت أتأبط غليوني كل يوم مع حفنة تبغ وحزمة جرائد، وأجلس في الصف الأول من مقهى السلطان المقابل لمقهى (القصر) الذي احتكره الفنانون التشكيليون مثل لؤي كيالي، وسعد يكن، وصلاح الدين محمد، وغيرهم كالشاعر لؤي فؤاد الأسعد الذي كان يروي لكل من يقابله انه ملاحق من كل مخابرات العالم.

ويبدو ان شخصية الكاتب تلبستني قبل أن أكتب شيئا مفيدا غير رومانسيات الشباب الموظفة اصلا لكسب ود البنات، وبينما أنا ألعلع بدخان غليوني في مقهاي الأثير، ذات يوم من أيام عام 1973، إذ أتاني شاب على استحياء، وطلب الحديث مع الكاتب الذي هو أنا فرحبت به. وقبل أن تصل قهوته أخبرني أنه من الليرمون وهي قرية كانت بعيدة قليلا عن حلب قبل ان تلتصق بها، وأنه جاء الي لأمر جلل ، فقد وقعت جريمة عاطفية في قريتهم لأن أسرة ما رفضت تزويج ابنتها لفتى يحبها بعد أن شاعت قصة حبهما فأطلق الرصاص عليها، وقتلها ثم انتحر. ولما سألته إن كان هناك تفاصيل أخرى مفيده للقصة أخرج من ظرف كان يحمله عدة رسائل متبادلة بين العاشقين وصور مغبشة لا تظهر ملامحهما، ونهض مغادرا قبل أن يكمل قهوته.

رسائل العاشقين، وحفنة من لعن التقاليد الاجتماعية، والتذكير بمسرحية (روميو وجولييت) لشكسبير، وحين ختمت المقال وجدت أنه أكبر من الصحافة السورية التي لا تنشر عن الجرائم لتوحي أننا بلد - ماشاء الله- آمن ومستقر، وهكذا اتخذتُ قراراً عاجلاً بالسفر مع مقالي الأول الذي يستاهل اسم مقال إلى بيروت في أول باص يغادر المدينة من كراج لا يبعد كثيرا عن باب الفرج، ولا يكلّف أكثر من ثلاث ليرات سورية .

في بيروت اتجهت بالمقال إلى مجلة (لأسبوع العربي) وطلبت مقابلة رئيس تحريرها ياسر الهواري، فقابلني سكرتير التحرير ابو سمرا الذي اعتذر لعدم وجود رئيسه بالمكتب ، فلما حكيت له القصة وأعطيته المقال جحظت عيناه، وفتح درجه، وأعطاني عشر ليرات لبنانية ، وكانت وقتها تساوي ثروة وقال لي مودعا ومظهرا احتراما يفوق الاحترام الذي قابلني به: لا تقلق سأعطي المقال للأستاذ ياسر هذا المساء.

وقد عربدت في بيروت ليلتها بخمس ليرات ، ونمت بثلاث ، وعدت في اليوم التالي الى حلب بليرتين، فلما هل اليوم الثالث وهو يوم صدور المجلة هرعت الى اول كشك صحف بالمنشية ، فوجدت اسمي على غلاف " الأسبوع العربي" بطول شبر ونصف كالتالي: محيي الدين اللاذقاني يكتب من حلب.. روميو وجولييت على الطريقة العصرية "

وتحت ذلك العنوان المثير صورة مغبشة لكائنين لا ملامح لهما يفترض انهما شهيدا الحب في الليرمون. وطبعا لم تسعني الدنيا في ذلك اليوم فقد كان يكتب بالأسبوع العربي -آنذاك- نزار قباني وغادة السمان ومعين بسيسو وثلة من كبار كتاب سوريا ولبنان ومصر، وأن أجد اسمي بينهم على الغلاف، وأنا في سنتي الجامعية الثانية كان أكبر من حلم تحقق صدفة ليجعل مني صحافيا وكاتبا رغم أنفي.

والأصح إقرارا بالحقيقية إن صفقة أبي غبشان مع الصحافة لم تكن خاسرة فقد دخلتها منذ ذلك المقال برغبة أنفي وحواسي كلها، وكان بإمكاني بعد أن حصلت على الماجستير والدكتوراه من جامعة الاسكندرية أن أدرس طلابا في إحدى الجامعات العربية لكن فكرة الجلوس مع الوجوه ذاتها كل يوم، ثم تصحيح أوراقها وامتحاناتها أرعبتني وأقلعت عنها.

وهكذا بسبب ذلك المقال الذي اعتبره الأول وجدت نفسي في بلاط صاحبة الجلالة بعد ان فتح ذلك المقال أمامي آفاق العمل أولا مع (الأسبوع العربي)، ولاحقا في كبريات الصحف العربية في الوطن والمهجر، وهو قرار لم أندم عليه لحظة واحدة مع كل ملاحظاتي السلبية على الصحافة العربية ومناخاتها المخنوقة المختنقة، والباحثة بإصرار "بروميثيوثي" عن نسمة حرية

العودة إلى الماضي كأداة مقاومة

بقلم: د. أحمد عسيلي

لم تشهد الهوية السورية في تاريخها كله، تراجعا كالذي وصلت إليه اليوم، فلم يهدم النظام البيوت والأعمار والأجساد وحسب، بل شارك وبشكل متعمد، في هدم الأنا الجمعي لوطننا، أي وصل إلى هدم جانبنا النفسي أيضا.

مع التراجع الإقتصادي للشعب السوري، وبدء موجات اللجوء هربا من جرائم الأسد، بدأت تقترن الهوية السورية شيئا فشيئا بصفة اللجوء والفقر، وانتشرت هذه الصفة في أرجاء المعمورة كلها، بعدما كانت مقتصرة فقط على الحيز اللبناني بشكل عام، والأردني جزئيا، منذ الثمانينات عندما بدأ الفساد في سوريا يأخذ شكل مرعبا أفقر الناس وجعل عشرات الآلاف من السوريين عمالا مياومين في لبنان.

زادت تثبت هذا الحال بعد الخراب السوري، ووصول ملايين السوريين كلاجئين إلى دول الجوار وأوربا، فربطت كلمة سوري بكل أشكال المعاناة الإنسانية حتى في الأفلام والكتب الأجنبية، هذه الحال جعلت الهوية السورية عند الكثير من السوريين شكلاً من العبء الثقيل بدل أن تكون عنوان انتماء. هي حقيقة صعبة وقاسية ربما، لكن قولها ضروري كي نعرف التشخيص الصحيح لواقعنا الإجتماعي الحالي، ونبدأ بالبحث عن علاجات، بقدرما تسمح به قدراتنا وظروفنا، مع أن هذه الحالة تعتبر مرحلة شاذة في التاريخ السوري، فهويتنا دوما كانت مصدر فخر لنا، حتى بشكلها المديني وقبل تشكل الوطن السوري بحدوده الحالية. تأمل الهوية الحلبية والدمشقية، وهوية اللاذقية كعاصمة للساحل، كلها كانت دوماً مرتبطة بأنا حضارية عالية جداً، ربما وصلت في كثير من الحالات، وعند عدد لا بأس به من سكان تلك المناطق، إلى حالة نرجسية متضخمة. هذه الأنا(بشكلها الطبيعي) لا يمكن أن نستعيدها إلا بالتركيز على أن الحالة الراهنة دخيلة على شخصيتنا، وأن لنا تاريخاً عريقاً شكّل هويتنا، وهنا لا نتحدث عن تاريخ ضارب في القدم، بل معاصر مازال الكثير ممن عاشوه على قيد الحياة أو رحلوا حديثا.

من هنا أعتقد أن مشروع (العربي القديم)، هو أحد أشكال المقاومة والرفض لإرث هذا النظام ولكل ما خلفه، من خلال التركيز على ماضينا المعاصر، واستعادتنا لهويتنا كي نداوي فيها شيئا من الأنا الجمعية المجروحة اليوم، فسوريا لا ترتبط بالتشبيح والأسد و صحافتها العريقة لا تختصرها صحافة (البعث) و(الثورة) و(تشرين) وكتابها الذي أوصلوا تلك المهنة إلى الحضيض، بل لنا ماض يجب أن نعيد إحياءه، وننشره للجيل الجديد الذي لم يعشه ولم يقرأ عنه. إعادة فتح ملفات تلك الفترة، مناقشة أفكارها، واستعادة شخصياتها، هي بشكل ما استعادة وتثبيت لهوية وطنية لم يعد يعرف عنها الجيل الجديد شيئاً. هي إحدى وسائل الدفاع المجتمعية، كي لا نفقد فيها ذاكرتنا، وكي نحافظ على شخصيتنا وتوازننا النفسي، ونرفض هذا النظام بكل تخلفه وهمجيته. هي تطبيق واقعي لقصيدة محمود درويش الغاضبة:

أيها المارون بين الكلمات العابرة

احملوا اسماءكم و انصرفوا

القديم أم الجديد؟

بقلم: رامي زين الدين

منحت العولمة دول العالم كافة، فرصة التّماس مع الحداثة وامتلاك منتجاتها، فلا تكاد ترى اليوم شخصاً في أي بقعة نائية ليس لديه هاتف ذكي أو يصعب عليه الوصول إلى شبكة الإنترنت، أو لا يملك حساباً في مواقع التواصل الاجتماعي، لكن هذا الانفتاح على الحضارة قد لا يعكس بالضرورة الواقع الحضاري لهذا المجتمع أو ذاك، إذ هناك فرق شاسع بين من يصنع ومن يستهلك فقط.

أسهمت التطورات في مجال النقل والتقنية خلال القرنين الماضيين في سهولة شحن البضائع براً وبحراً وجواً، ورغم الطابع الربحي المبالغ به أحياناً كثيرة والذي يُعيبه البعض على العولمة، إلا أن منافعها أكبر بكثير من المآخذ عليها. لنتخيل مثلاً أن اللقاحات بقيت في البلدان التي صنعتها؟ أو مثلاً احتكر صنّاع السيارات والقطارات والطائرات هذه الوسائل؟

خرجت اليابان من الحرب العالمية الثانية دولة مهزومة ومنزوعة السلاح وتحت الهيمنة الأميركية، لكن توفرت لدى نخبتها الرغبة والإرادة للخروج من تلك الهزيمة أقوى وأفضل، فاعترفت بهزيمتها، ونفضت غبارها، واستوعبت أن التاريخ العسكريتاري للإمبراطورية اليابانية انتهى، ووضعت مبادئ لحقبة جديدة ينصب التركيز فيها على التنمية وبناء الفرد والقيم الإنسانية. ولما كانت تلك النخبة المستنيرة تُدرك الفجوة الحضارية بين اليابان والغرب، وتُدرك في الوقت نفسه حاجتها لتلك الحضارة، تبنّت مبدأ عظيماً يقول "التقنية غربية والروح يابانية" ولعلّ صناعة السيارات أكبر مثال يُجسد هذا المبدأ، فاليابان ليست أول دولة صنعت سيارة، لكن مركباتها اليوم التي صنعتها عقول وسواعد أبنائها تجوب العالم بأسمائها اليابانية.

وشقّت هذه الدولة الواقعة في شرق آسيا طريقها المليء بالتحديات والصعوبات، مقدمة أنموذجاً رائعاً في أخذ العبر من التاريخ وخلق تجربة فريدة تُحافظ فيها على أفضل ما في الماضي، وتأخذ أفضل ما في الحاضر.

يقول عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي مارك أوجيه الذي رحل قبل أيام عن عمر ناهز 78 عاماً في إحدى مقابلاته الصحفية إن "هناك مجتمعات لديها بعض اللحظات التي ينبغي نسيانها، في مقابل أخرى، ينبغي استلهامها وتذكّرها بإلحاح".

الدولة، أي دولة، تحتاج القديم، لكن قبل ذلك عليها أن تعرف ما الذي تحتاجه منه. القديم قد يكون عظيماً في لحظته التاريخية، وقد لا يكون مناسباً ولا مثمرا لزمن مختلف، فلكل حقبة نخبتها وأفكارها واحتياجاتها.

العربي القديم

صحيفة شهرية تعنى بالتاريخ السوري والعربي وتستعيد ذاكرة الصحافة العابرة للأجيال

رئيس التحرير:
محمد منصور

مدير التحرير
عبد الرحمن عمرين

سكرتير التحرير
رامي زين الدين

إدارة سوشيال ميديا
فايز النعيمي

المستشار الفني
نبيل مراد

* الآراء الواردة في الصحيفة سواء من المقالات القديمة أو المقالات المكتوبة خصيصا لـ" العربي القديم" تعبر عن توجهات ورأي إدارة تحريرها

* إيميل التحرير: mansoursham@gmail.com

* واتساب التحرير والإعلان: 00905368116000

علي حمرا

مسلسل حرائق دمشق

بقلم: سعد فنصة

تتوضع أمامي الآن خريطة دمشق القديمة بمعالمها الأثرية، ودورها ومدارسها وأزقتها وأسواقها التاريخية، برموزها الدينية، من مساجد وكنائس وحمامات وأضرحة ومقابر ومقامات، لتبدو وكأنها مكتبة فريدة، قد لايكون لها مثيلا في بقاع أخرى من مدن الحضر العمراني، المتنوع بثقافاته الإنسانية المتعددة، هذه المكتبة الوثائقية لتاريخ الشخصيات والعمائر مع كل هذا النسيج العمراني الفريد، تعرض خلال العقود الماضية -كما هو معلوم- لحزمة كوارث جلية، من صنع السياسات العمرانية والإنشائية الرسمية التي أفرزتها مخططات أقل ما يمكن أن يقال فيها، أنها خليط من خطط الإنشاء العشوائي الإداري والهندسي مع سوقية أنظمة الرعاع من رجالات الإقطاع الجديد، من متعهدي العمار الذي أفرزه تحالف الفساد الإداري للحكومات المتعاقبة، منذ احتلال الشعارات الكبرى، مقام رغيف خبز المواطن السوري، وثيق الصلة، بحريته وكرامته الإنسانية وهويته الحضارية.

هذه التغييرات كانت بمثابة اعتداء غيرت من ملامح دمشق، بدأت بخطوات متسارعة منذ نهاية ستينات القرن الماضي، أزالت أحياء تراثية بأكملها، ودمرت البنى الإجتماعية والغذائية لعناصر الحياة، في دمشق القديمة داخل السور وخارجه (1)، وأنهاره السبعة التي تخترق الشام بهندسة عبقرية مذهلة، استمرت بالتدفق في أقنيتها اليونانية الرومانية، طوال أكثر من ألفي عام، من الآن ليكون مآلها في سبعينات وثمانينات القرن الماضي من حكم البعث، مكبات للنفايات وبؤر للقوارض والحشرات وانتشار الأوبئة، التي يفترض أن تكون قد انقرضت، مع تنامي الوعي الصحي والكشوفات الطبية والدوائية في النصف الثاني من القرن العشرين. (2)

حريق حي سوق ساروجة

يأتي حريق سوق ساروجة التاريخي، أو بالأصح ما بقي منه، ضمن مسلسل طويل من الحرائق المشابهة القريبة، المتعمدة، لطمس الطراز المعماري الدمشقي الإسلامي العثماني الأصيل، لهذا الحي العريق، الذي كان يقطنه الأثرياء وأصحاب الشأن في السلطنة، كذلك كان حي القنصليات المعتمدة تاريخيا في دمشق.

إذ قضى الحريق على أكثر من عشر دور أثرية، تتميز بمعمارها وزخارفها ذات الطابع الذي منح دمشق تلك العراقة والذوق الفني الخاص الذي جعلها واحدة من المدن المحمية بقرار منظمة اليونسكو عام 1979باعتبارها ملكا ثقافيا للإنسانية جمعاء، وموئلا للباحثين في التاريخ وفن العمارة، يجب الحفاظ عليه، مع مدن ومواقع أخرى، مثل تدمر وبصرى وحلب وغيرها.

كان في مقدمة الدور الأثرية التي أحالها الحريق أثرا بعد عين، دار أمير الحج عبد الرحمن باشا اليوسف، وأجزاء من دار رئيس وزراء سوريا الأسبق خالد العظم، والذي يُقسَم الى متحفين، متحف الوثائق التاريخية وهو الأقدم، ومتحف البيت الشامي، الذي جرى ترميمه في ثمانينات القرن الماضي، حيث احترق مكتب الإدارة، ويتوضع تحته مكتبة مركز الوثائق، وتضم مخطوطات وكتباً قديمة ونادرة، اضافة الى الوثائق العثمانية والتي تضم سلالات الأشراف، وصكوك الملكية التاريخية لدمشق عموما وسوريا خصوصا، وبالرغم من أن التصريحات الرسمية أفادت بسلامة جزء كبير منها، إلا أن أي اثبات رسمي من مصدر علمي موثوق ومحايد لم يظهر الى العلن حتى يوم كتابة هذا النص.

كل ذلك تم أمام صمت رسمي مريب، وتعمية إعلامية، توحي بالتواطؤ المرة تلو الأخرى، مع الفاعل المتسلسل في الجريمة، بعد حرائق مشابهة حدثت دون أي إيضاحات مقنعة، لكن من خلال شهادات الناس التي قُدِرَ لي تسجيلها، خلال السنوات الماضية، توضحت الصورة الكاشفة لحال دمشق القديمة، بما لايدع مجالا للتأويل بصدفية هذا الحوادث، أو إلقاء مسؤوليتها، كما درجت العادة على الإهمال الإداري أو المؤسساتي الأشمل، الذي يحرف الأنظار عن تغول المد الديني الإيراني بسعيه لتأسيس مراكز دينية محدثة على أسس طائفية، تحتمل الكثير من النوايا الإقتصادية الربحية، لتحالف المنظومتين الفاسدتين، منظومة الرئاسة مع المحتل الإيراني، لبناء أحزمة جديدة حول مراقد دينية، تنسب إلى (آل البيت الرسولي) هدفها السيطرة على المركز الحيوي لقلب دمشق التجاري، حين تظهر تباعا الأبنية البرجية الجديدة يدا بيد مع التغيير الديمغرافي، الذي بدأ على قدم وساق خلال السنوات العشر الماضية، برعاية الحرس الثوري الإيراني وعناصره المبثوثة، في أحياء دمشق بذريعة حماية المزارات المقدسة، أو تلك المراد توسعتها أو بناء مباني الخدمات الملاصقة لها.

الإعداد المتأني للحريق!

كان الإغراء المادي الكبير لشراء الدور والمحال التجارية، التي تحف بنقاط محددة من دمشق القديمة، أحد ابرز أسباب التغول الماضي، وحين لم تنفع المطالبة اللحوحة ووسائط الإغراء المادي الكبير، من أذرع وعملاء طهران، لسكان الشريان التجاري الحيوي لقلب دمشق، كانت الحرائق تشتعل، بعد الإعداد المتأني لتوفير كل الأسباب الملائمة، لأن يأتي الحريق على أسواق وأحياء بأكملها، من خلال تذخير زوايا وأمكنة محددة من المواد الكيميائية الأكثر خطورة وقابلية للاشتعال، مع قطع الخشب واللبن القديم الجاف في بنيان العمارة الطينية القديمة لدمشق، بحيث يكون من المتعذر إطفاؤها بأساليب الإطفاء التقليدية، والمتأخرة دائما عن الوصول إلى بؤر الحريق. يضاف إلى كل ذلك الوجوه الغريبة والمتوحشة والتي ظهرت فجأة من غياهب القرون السحيقة، وهي تقف موقف المتفرج على حرائق دمشق، لاتخفي سعادتها بإحراق الأبنية القديمة ذات الطابع الدمشقي أو العثماني، الذي لايتصل بالعصر الفارسي، أو بضرورات الحياة العصرية كما يراها المُخَطِط الإيراني، من طهران، الذي سُمح له بالتمدد بعد أن باعه نظام دمشق، الأراضي والقرى والمدن والثروات الباطنية والآثار، وتسامح معه بالإتجار بالثروتين الاقتصادية والثقافية، تلك التي لا يهتم بها تاجر الدماء الروسي، أو الأمريكي.

شهادتي في موضوع الآثار طويلة، كما كنت أردد بأعلى صوت طوال السنوات الماضية، ودمشق كما هي سوريا بأكملها مستباحة اليوم، تحت أسوأ أنواع القهر الإنساني، والإحتلالات العسكرية والاقتصادية، ونوع غريب من اللصوصية التي تبني اليوم مستعمرات جديدة لسكان جدد، على هامش عريض من الإفقار والتجويع، ونهب الثروات، والقمع الوحشي تحت وطأة الإخفاء في المعتقلات، لكل صوت مرتفع لذلك كان المجرم المتسلسل ماثلا للعيان، مع حلفائه وأركان عصبته، وكان لابد للسوريين الأحرار الناجين من خوف القمع، إيقاف مسلسل الجرائم الإنسانية والمعمارية الكبرى، بالمطالبة الفورية بتفعيل اتفاقية لاهاي لعام 1954 لحماية الممتلكات الثقافية في الدول الخاضعة للاحتلال، خصوصا المادة الثانية من الباب الأول، والمادتين السابعة والثامنة من الباب الثاني، ويمكن لأي مهتم مراجعة مواد الاتفاقية كاملة من مصادر النت المتاحة. وإن كنت على يقين، وأدعيها صراحة في عجالة، أن تواطئا دوليا من المنظمات الصورية، للمجتمع الدولي، كان شريكا في كل ما حصل في سوريا، وفي مقدمتهم منظمة اليونسكو... وغيرها من المنظمات المخترقة أوالفاشلة.

هوامش:

(1) من خلال المقارنات مع الصور الوثائقية التي التقطها الرحالة المصورون لدمشق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحتى النصف الأول من القرن العشرين، يمكن لأي باحث أو مطلع ملاحظة أن دمشق القديمة وغوطتها لم تتغير معالمها وملامحها طوال أكثر من مئة عام، حتى مع التغير العمراني الحديث في خمسينات القرن الماض، اذ بقيت دمشق محافظة على طرازها المعماري، وكان حادثة قصف دمشق عام 1925 واحراق حي سيدي عامود بأكمله (منطقة الحريقة) حدثا جلل، احترقت فيه كنوز أثرية ومعمارية تعود للقرنين السابع والثامن عشر، إلا أن دمشق التاريخية تغيرت ملامحها بصور كارثية، بعد عام 1970 وهذا ما أشرت اليه تحديدا خلال مقارنات الصور، ومخططات التوسع العشوائي

(2) كان انتشار وباء الكوليرا على نطاق واسع في دمشق عام 1977 حدثا في غاية البشاعة والإذلال، من مفرزات االتغيير العمراني، وانتشار العشوائيات وأحزمة الفقر وهجرة الريف، كسوار يحاصر العاصمة ، مع تلوث نهر بردى بأفرعه السبعة، وجفاف بعضه الآخر، بالبقايا البشرية الملوثة للصحة والقاء نفايات المصانع الناشئة مع الملوثات التي كانت ترميها المشافي والمراكز الصحية يضاف الى كل ذلك المواد الكيميائية، بحيث كانت سببا لإنتشار الكثير من الأمراض المزمنة وموت أطفال رضع لأسباب كان يمكن تداركها، بقليل من الرعاية الطبية، ليس أقلها اسهالات الأطفال.

التقدم إلى الخلف

عبد الرحمن عمرين

انتقادات لرؤساء الحكومات، أخبار عن إضرابات، دعوات لإحياء التراث، ملاحقة فساد، سجالات فكرية ودينية، قصائد شعرية ونصوص أدبية، تشكيلة دسمة من المواضيع والقصص التي نشرتها صحف ومجلات سورية وعربية خلال العقود الأولى من القرن الماضي، إذا وقعت عينك عليها، ستجدها تشبه إلى حدٍ كبير ما تنشره اليوم الصحف الغربية أو جرائد الدول التي يسمونها متقدمة وهي كذلك للأمانة!

إذن السؤال: لماذا تعثرت مجتمعاتنا وكان مصيرها وصول العسكر والفاسدين والمستبدين إلى رأس السلطة في حين تنامت الديمقراطيات والحريات على اختلاف أنواعها وأشكالها ومسمياتها في الغرب؟ التطور المنطقي كان يقتضي أن تكون الصحافة العربية والسورية بشكل خاص، تماثل الصحافة الألمانية اليوم على سبيل المثال، لماذا تراجعنا رغم المناخ الديمقراطي الصحي، والجرائد والمجلات والمطبوعات الفكرية المتنوعة، والتي كانت تتناول هموم الناس في تلك الفترة دون خطوط حمراء، ويمتلك كُتابها الجرأة لمهاجمة رئيس حكومة، أو عضو برلماني، أو مسؤول رفيع كان أم ثخين، دون الخوف من الملاحقة والتصفية؟ بصراحة أنا لا أعرف إجابة واضحة على هذا السؤال، وربما لديّ تخمينات أبرزها محدودية القراءة والقراء في تلك الحقبة، وأثر ذلك على تعزيز دور المجتمع وتمكينه من فهم حقوقه ودفعه لانتزاعها إذا فكر أحد بالسطو عليها!

كانت أكثر العبارات التي تثير استيائي خلال دراسة الصحافة عبارة "حكي جرايد"، في إشارة إلى عدم قيمة ومصداقية ما تحتويه الجرائد! مع أنها أو يفترض أن تحتوي موضوعات ومقالات وقصص تمس حياة الناس وتبحث عن الحقائق لتقدمها لهم. ربما ظهر المصطلح بعد استيلاء العسكرتاريا على الصحف وجميع وسائل الإعلام، وهيمنة أبواق السلطة على المشهد الصحفي، وإذا كان كذلك فهو في محله! على العموم، الجميل في العربي القديم، أنها ستتيح لتلك الموضوعات والقصص الصحفية أن تحظى بفرصة أخرى للقراءة، مع أن عدد القراء الآن ربما أسوأ مما كان قبل قرن! ليس لانتشار الأمية التي باتت نسبتها محدودة نوعًا ما في معظم دول العالم العربي، ولكن بسبب هيمنة نظام التفاهة على عقول الناس، بحسب الفيلسوف الكندي ألان دونو!

الملف

محمّد الماغوط مراسلاً ثقافيّاً

مارس الأديب محمد الماغوط العمل الصحفي كمحرر وككاتب زاوية وعمود منذ أواسط خمسينات القرن العشرين، إلا أن عمله كمراسل ثقافي قدم لنا نكهة أخرى، امتزجت فيها متابعة النشاط الثقافي بالحس النقدي، والحديث عن الظواهر الثقافية الطارئة بتشريح العقلية السائدة في السياسة والإدارة.

في هذا الملف الذي سمّاه "صفر على اليمين" شرّح الماغوط الواقع الثقافي السوري عام 1965 بعد عامين من انقلاب البعث، فجاء نصه سردا تحليلياً مفعماً بالملاحظات النقدية والهواجس والتأملات العميقة والقدرة الخلاقة على النفاذ إلى روح الأشخاص والوقائع والوجوه

محمد منصور

بدر شاكر السياب

أورخان ميسر

من المؤكد تاريخيا أن الدول النامية، ستظل غير نامية ما لم تكف عن اعتبار الأدب "وكالة غوث الجماهير" وسيظل وجهها الثقافي نتيجة لذلك، ورغم ازدحام المكتبات وهدير المطابع وعمق الدراسات، وجهاً غير حقيقي: باردا ومشوها، كأنه رشق فجأة بزجاجة من الأسيد.

ولكن من فعل ذلك يا ترى؟ الفران؟ الخباز؟ أم ذلك الفقس الأدبي الأحمر، الذي ما إن يبلغ الواحد منه طول القلم نفسه، حتى ينتقد نيتشة، ويتحدى كامو، ويعري شكسبير: وحيدا في الساحة، مدعوما باليسار المُساء فهمه، محتميا بتلك الموجة الهادرة من قارة إلى قارة لتعليم الآخرين أصول النطق وفروسية الكلمة، بعد أن خلفت على شاطئها ونبع وجودها البعيد، آلاف الشفاه المكممة، وجماجم الشعراء المثقوبة من الخلف. أم أن البطون قد أعقمت دون النوابغ، والأرحام باظت وأحجمت دون العباقرة والشوامخ؟

نحن الآن في مقهى الغادرينيا. بنتاغون الأدب والفن والفلسفة، فماذا نجد غير الأقداح والفناجين والتثاؤب؟ نرى صفوفا متوازية متراصة من الرؤوس المسنودة على طرف الأصبع، والمائلة يمينا وشمالا حسب اتجاه الريح. ولو أغمضت عينيك قليلا، ونظرت من يافوخ أي منها، لوجدت أن أقل ما تكتنز به من الداخل هو: العبقرية! ولكن عبقرية بماذا؟ بالأدب.. بالفن طبعا!

عظيم. ولكن لو تجرأت وسألت بكل رقة وهمس: ولكن أي صنف من الأدب أو الفن هو يا بني؟ لأجابك الفم المطبق على الغليون أو قشة المرطبات: أوووه.. أدب.. فن.. ألا يكفي هذا؟ طبعا يكفي يا بني وهل لتلك الأسئلة المتلاحقة غير هذا التكتم؟ ولهذه اللغة السلسة والتجارب المطواعة غير هذا العناد؟ طبعا يكفي ويزيد يا بني. دعوا الرجل إذا يواجه تلك الترسانة الفكرية الممتدة من القطب الشمالي حتى القطب الجنوبي بقصيدة عن "البطاح والرماح"ليؤرخ خمسمائة سنة من الغزو والمشانق وسوط الوالي بقشة المرطبات ودراسة حماسية عن روعة الصناعات اليدوية في طشقند.

نعم دعوا الرجل، وتعالوا لنعرج مثلا نحو ذلك الذي يجلس وحيدا في الزاوية وهو يتثاءب بشكل جماهيري، أو ذلك الذي لا يقف ولا يجلس وإنما ينقل أوراقه بيديه من طاولة إلى طاولة، ومن زاوية إلى أخرى، دون ان يعرف كيف يبيض هذه البيضة. راقبوه فقط وسترون العجب العجاب في الأسلوب الذي يصنع به الأدب الجماهيري. فهو كما يبدو من شرود عينيه وتقطيب حاجبيه في حالة "خلق" عظيمة، ولا بد أنه ينقب الآن في ذاكرته عن أي رواية أو مسرحية لم تلطش بعد، ليستفردها وينكح ما لذّ وطاب: فالتزاوج الحضاري مع الآخرين ضروري – ولو عن طريق الزنى!

ذلك الفقس الأدبي الأحمر ما إن يبلغ الواحد منه طول القلم نفسه حتى ينتقد نيتشة ويتحدى كامو ويعرّي شكسبير

إنّ من يزعم بأن هناك أدبا تقدميا وآخر رجعياً وأن هنالك فناً ثورياً وآخر انتهازياً هو مخطئ، وموغل في غابة الأخطاء؛ إذ ما من أديب حقيقي أو فنان حقيقي في كل حقبات التاريخ، يُهلل للجوع ويُبشّر بالظلم ويُنادي بالرق وجلد الأحرار

أما الأسباب الموجبة لذلك، فهي من البداهة والوجاهة بحيث تبدو كلمة "ماهي" ضرباً من الجنون وإضاعة الوقت، في هذا العصر المتدفق نشاطا وحيوية وإنجازاً. والدليل على ذلك هو أنه إذا كان تقوم مقطع صغير في قصيدة صغيرة أصعب من تقويم الحديد المعوّج، فما بالك إذا والمطلوب هو تغيير مفهوم الأدب والفكر والفن من أساسه، وهدايته هداية كاملة، بعد قرون طويلة من الضلال والفلتان؟ إن عملا كهذا لا يمكن إنجازه خلال أسبوع أو أسبوعين، بل قد يحتاج الأمر إلى شهر أو سنة! فبأية طريقة إذا يمكننا الخروج من هذا المأزق الثقافي؟ بل بأية طريقة يمكننا اختصار الزمن لمجاراته في السرعة والتطور والإبداع؟

هناك طريقة واحدة لا بد منها في هذه المرحلة التاريخية الحاسمة: ألا وهي طريقة اللطش. مثلا نلطش مسرحية (الغربان) ونقدمها باسم (الطوفان) وبدلا من أن يموت الأب بالسكتة القلبية، يموت بالسكتة الزراعية؛ وبدلا من أن يغمى على البطلة من الفرح عند سماع صوت حبيبها من النافذة، يغمى عليها من الفرح لسماع صوت تراكتور من النافذة. أما الحب والعواطف والأحلام والشوق والتنهدات، فهي مظاهر إقليمية ضيقة، يجب أن تطرد من صفحات الأدب وأوتار الفن، كما يطرد الطلبة الخائبون من المدرسة، أو تعود إلى رشدها وتنقلب بقدرة قادر إلى مصلحة الجماهير، كأن ينقلب اليأس فورا إلى أمل، والانتظار إلى لقاء، والحنين إلى نسيان، والخوف إلى شجاعة، والجاز إلى باليه، والباليه إلى دبكة، بحيث يستفاد منها كلها بما يعود بالنفع العميم على المواطنين، كتشجيع السياحة، وطرش المستشفيات، وتنوير القرى.

أما كيف يتم ذلك، فباتهام أية قصيدة أو رواية أو مسرحية وجدانية بأنها إنجاز يميني بورجوازي. أو بالدراسات "الموجزة" التي لا تأخذ سوى ست صفحات عن الفكر المغمور في بورما، والترجمات الحيادية التي لا تأخذ من المجلة سوى ستين صفحة، عن الشاعر الذي لم يسمع به أحد في السلفادور. أما المعري وأبو فراس والفارابي والمتنبي والشريف الرضي، فنتركهم للمستشرقين يقيّمونهم ويدرسونهم، يحذفون منهم ويضيفون عليهم حسب مزاجهم، لأنهم من الأسكيمو وليسوا قلب حضارتنا، وغار جبيننا، ورعد ماضينا ومستقبلنا.

إن من يزعم بأن هناك أدبا تقدميا وآخر رجعياً، وأن هنالك فنا ثورياً وآخر انتهازياً هو مخطئ، وموغل – دون أي حجة تاريخية – في غابة الأخطاء. إذ ما من أديب حقيقي أو فنان حقيقي، في كل حقبات التاريخ، شرقيا كان أم غربياً، جنوبيا أم شمالياً يهلل للجوع، ويبشر بالظلم، وينادي بالرق وجلد الأحرار. إن الأدب الحقيقي والفن الحقيقي شيء واحد مستقل، كالقدر، كالله، فوق كل شيء ولكل شيء... ولا يمكن ترويضه داخل حلبة الدقيق

الملف

محمّد الماغوط مراسلاً ثقافيّاً

لوحة لفاتح المدرس

لوحة الوجوه الثلاث للؤي كيالي

والخضار وإبرام الاتفاقيات، وواقعنا الأدبي الأمرد لأسباب طارئة، ليس بحاجة إلى لحية وشوارب أجنبية دخيلة لإثبات رجولته.

كما أن الأدب الحقيقي ليس هو الأدب الذي تستسيغه وتتفهّمه الجماهير فورا وبكل مستوياتها، كما تتفهم الإعلانات الملصوقة على أعمدة الهاتف ومداخل الباصات، إذ لو كان الأمر كذلك لكان حرياً بأعضاء اللجنة التي تمنح جائزة نوبل للآداب كل عام، أن يوكلوا أمر تقدير الجائزة إلى طهاتهم وسائقي سياراتهم.

***

كان يرفض المساومة على الحضارة كأنها في بازار، يمتنع عن مجرد والخضار وإبرام الاتفاقيات، وواقعنا الأدبي الأمرد لأسباب طارئة، ليس بحاجة إلى لحية وشوارب أجنبية دخيلة لإثبات رجولته.

كما أن الأدب الحقيقي ليس هو الأدب الذي تستسيغه وتتفهمه الجماهير فورا وبكل مستوياتها، كما تتفهم الإعلانات الملصوقة على أعمدة الهاتف ومداخل الباصات، إذ لو كان الأمر كذلك لكان حرياً بأعضاء اللجنة التي تمنح جائزة نوبل للآداب كل عام، أن يوكلوا أمر تقدير الجائزة إلى طهاتهم وسائقي سياراتهم.

***

بعد بدر شاكر السياب، سقطت هذا العام الحبة الثانية من مسبحة الفكر العربي، ولكن بهدوء، ودون ضجة سقوط اللؤلؤ في قاع البحر. لم يكن أورخان ميسر روائيا كبيرا كنجيب محفوظ، ولا ناقدا فذا كمحمد مندور، ولكن من المؤكد أنه لو هيأت له ظروف ومناخ أي منهما، لمَا أفرغ ثقافة ثلاث أمم في أقداح الخمر. الأطباء يقولون أن السرطان هو الذي قتله، وأصدقاؤه يقولون الخمر، إلا أن من وقف على ظروفه جيداً لا يشك لحظة واحدة بأن الذي قتله هو الصمت (رغم أنه كان في أحيان كثيرة ينام وهو يتكلم) نعم الصمت الذي ينقلب في أحيان كثيرة إلى خيطان من العنكبوت تربط رأس اللسان برأس القلم، في زمن ديدنه الصراخ والعويل على المنابر.

النقاش في أزمة الفكر العربي، إذا كانت نقطة الانطلاق سوف تتجاوز بداية التاريخ سطرا واحدا مهما كانت وجهة التيار وكثافته وروعته. ولما كان الذين يشاركونه هذا الموقف أشد تفسخا من أن يتحملوا صدمة التاير، وأقل ذكاء من أن يتحايلوا عليه، فقد عاش أورخان ميسر وحيدا بين كتبه وأحلامه وأفكاره، يقرأ كفه، ويشرب قدحا، لا لينسى الكارثة بل ليحياها، زاحفا على ركبتيه المعروفيتين في تلك المكتبة المترامية الأطراف والممتدة من غرفة النوم حتى المطبخ، بحثا عن الموت أو التراث، تظلله اللوحات الفاجعة، وتحف به حثالة الخمر الراكدة في أكواب الأصدقاء والضيوف الذين شربوا ومضوا.

ولعل أبلغ ما قيل في ذلك اليوم الكئيب الأخير (عندما وقف اثنان من أصدقائه يرثيانه الرثاء التقليدي المعروف: "أورخان لم يمت، أورخان حي في قلوبنا، ماثل في أفئدتنا..." هو صرخة سعيد الجزائري الملتاعة، راجيا إياهما بكل المقدسات التي يؤمنان بها، أن يَكفّا عن هذا الهراء، لأن الكلمات.. كل الكلمات.. لم تكن في تلك اللحظة بحاجة حتى إلى نسمة عابرة لتتعب وتتلاشى، فما بالك والريح كانت في ذلك اليوم تثب من المقبرة إلى الشارع، ومن الشارع إلى المقبرة، كأنها هي التي ستوارى التراب!

***

اثنان يتنازعان أولوية الرسم في دمشق: فاتح المدرس ولؤي كيالي. وعلى جدارين متقابلين في المقاهي العابقة بالضجيج والدخان، علق كل منهما لوحة، هي آخر انتاجه، ثم جلسا على طاولتين متقابلتين، ينتظران رأي الجمهور، بما فيه من جهلة ومثقفين، ومتثائبين ومتفلسفين. ولكن غريب أمر الجمهور، والأغرب أمر الرسم التجريدي والتعبيري، فإذا كان المواطن عاديا أو مثقفاً، يمر في ظروف يعصي عليه فيها فهم الكلمة المكتوبة والمروءة والمحاطة بالفواصل والقواس، فكيف نريده أن يفهم أن خطاً بشكل كذا، وخطاً آخر بشكل كذا، يشكّل كذا وكذا؟

ومع ذلك تحدث المعجزة في بعض الأحيان، ويشع نور ضئيل من قبس الفهم ولو على مضض، في أن تكون مثل هذه الخطوط تشكل فعلا كذا وكذا. في لوحة "تدمريات" لفاتح المدرس، تطالع ملامح مجزرة بشرية، استحال فيها القماس بما هبط عليه من ألوان زاهية وساخطة إلى منتجع عقلي لأربع نساء فاقدات الأمل بالماضي والحاضر والمستقبل، يتلاحمن بالشعور والآذان والأصداغ والأصابع، بحيث تبدو وجوههن الأربعة زحاما لا يحتمل ثماني عيون ترى كل شيء وتتجاهل كل شيء. تظاهرة عجيبة من الأطراف والحواس البشرية المهملة تربض وسط اللوحة فقط للرضوخ؛ فقط للاستنكار. أما خط الأفق الصحراوي المتموج فوق الغيوم الحمراء والقمم السوداء المهترئة، فقد كان ذريعة تاريخية فاشلة، لإعطاء اللوحة بعدا زمنياً هو في غير صالحها، إذا لم يكتسح ثلث اللوحة على الأقل. فهو بشكله الحاضر بائس ومرتفع ومستقيم ووجه امرأة تتألم وتشكو، والثالثة تتألم وتشكو وتنتظر.. لدرجة يظن بها أنه جزء من الإطار أو ظل له. وهذه نقيصة لا ندري ما هو سببها، إلا أنها توحي على كل حال بأن الموضوع الذي تطرق له فاتح المدرس كان أكبر من أن يمر بسهولة من أنابيب ألوانه.

أما لوحة "الوجوه الثلاث" للؤي كيالي، فبالرغم من أن الوجوه التي

الأطباء يقولون أن السرطان هو الذي قتل أورخان ميّسر وأصدقاؤه يقولون الخمر، إلا أن من وقف على ظروفه جيداً لا يشك لحظة واحدة بأن الذي قتله هو الصمت!

صرخ سعيد الجزائري في اثنين من أصدقاء أورخان، راجيا إياهما بكل المقدسات التي يؤمنان بها، أن يكفا عن هذا الهراء!

اثنان يتنازعان أولوية الرسم في دمشق: فاتح المدرس ولؤي كيالي. وعلى جدارين متقابلين في المقاهي العابقة بالضجيج والدخان، علّق كل منهما لوحة هي آخر انتاجه ثم جلسا ينتظران رأي الجمهور

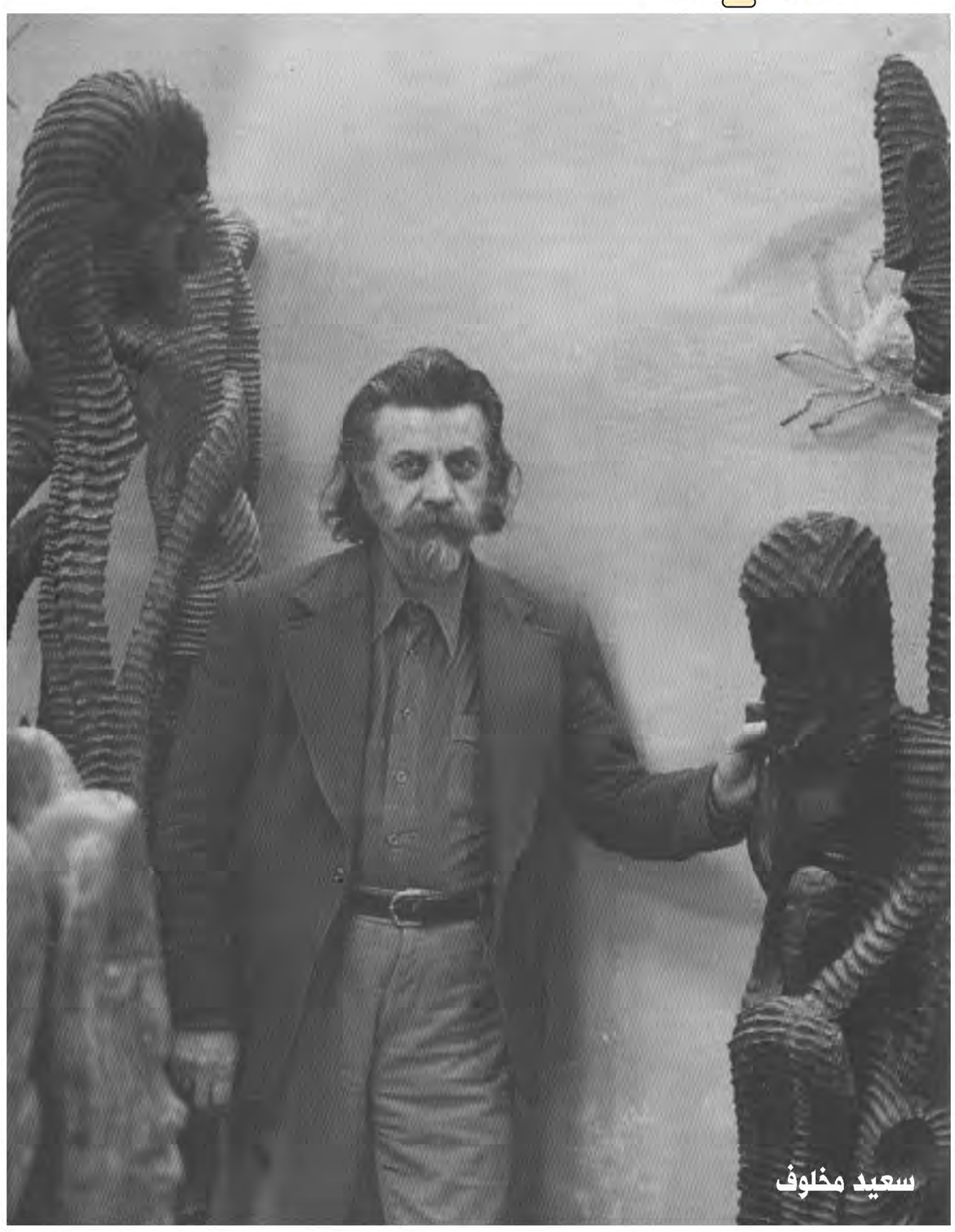
سعيد مخلوف

سنية صالح

تضمنتها لا تنقص وجها واحدا من وجوه فاتح المدرس، فلقد بدا الفرق هائلاً ومستغرباً في العدد. الوجوه هنا ثلاث: وجه إمرأة تتألم وتنتظر، ووجه امرأة تتألم وتشكو، والثالثة تتألم وتشكو وتنتظر.. وفوق ذلك حبلى (وياحبذا لو أن لؤي كيالي وضعها في المستشفى وليس في اللوحة) لأن الجنين فرض عليها جولاً أكاديمياً من الشفقة، وأسقطها، رغم سحر الألوان ولزوجتها النبيلة. من عالم الاحترام والاستنتاج والتحديق الطويل. إن حضور المرأة الحبلى أرغم جارتها (وهي أجمل نساء اللوحة وأكثرهن حزنا وغنجاً) على إسدال يديها على الركبتين أوما يشبه الركبتين، برطيقة غير مريحة، حتى لا تؤذيان الجنين؛ بحيث التصقت الأصابع الزرقاء المشوبة بالصفرة التصاقا باردا لا معنى له، وقد كان من المفروض أن ترتفعا باتجاه الصدر لتكونا على أهبة الاستعداد لالتقاط فتحة الثوب، كمظهر من مظاهر التهديد وفقدان الصبر ضد هذا الاستسلام الذي يطغى على اللوحة بجاذبية بلغت حد الإبداع لولا الدموع. نعم تلك الدموع التي لا نعرف لماذا ارتجلها لؤي كيالي بتلك الكلاسيكية الهجينة، إذا ما قرونت بالأصالة التي حاولت الألوان أن تنيرها رغم الضعة السافرة في مستوى المرأة الثالثة التي لم نذكرها للآن. إن اختلاط الدموع بالكحل أو بما يوحي به من ظلال الأجفاء السوداء، أحالها إلى دموع غير متقنة وغير مقنعة.

بين تدميريات فاتح المدرس ووجوه لؤي كيالي بالنسبة للأفكار وأسلوب المعالجة مسافة طويلة هي أكثر بكثير مما بين جداري المقهى.

***

لا تعرف ما هي الحكمة في تسمية معرض النحات سعيد مخلوف بمعرض "الفضاء" رغم أن مساحته كانت أصغر من مساحة القن. ولو أنه كان مخصصا لعرض التحف الشامية أو الفواكه المجففة لوجدنا عذرا لهندسة وزارة الثقافة والإرشاد.. أما وأن الأمر يتعلق بتماثيل سعيد مخلوف (المشهورة بعصبيتها وشراستها) فلقد كان ضمان مسافة بين التمثال والمتفرج ضروريا أكثر من التمثال نفسه. شيء يستحق التنويه فعلاً: فالمعروف فيزيولوجيا أن السيقان والأذرع الطويلة، والأيدي والرؤوس المفلحطة، هي من مظاهر البله والخمول في الجنس البشري. إلا أن إزميل سعيد مخلوف ومبرده أحالا هذه البديهة إلى غلطة كبيرة. فكل شيء عنده يوحي بالعنف الداخلي والعصيان المتطرف؛ بل يوحي بعدد هائل من البطولات الشامخة والذليلة في آن واحد، كما في "عراك" و"المقعد" وهذا هو جوهر عمله الفني الذي يجعل من ثقافته المحدودة في هذا الفن أمراً ثانوياً، فهو لا يستلهم في أعماله أية مقاييس سابقة، بل كثيرا ما يفرض عليه شكل الغصن، أو نتوءات الجذع الذي يستعمله، شكل التمثال وموضوعه. ولذلك فإن الذين تمتدحونه باستمرار لبراعته في الحفر على الخشب، إنما هم يذكرونه في الحقيقة بأن محك موهبته الحقيقي هو الحجر. حيث لا نتوءات ولا أغصان، حيث لا شيء غير التحدي. ومع أن سعيد مخلوف قد قام بعدة محاولات في هذا المجال، إلا أنها لم تكن كافية لوضع هذا التحدي أو هذا الدس، على الرف.

لا تعرف ما هي الحكمة في تسمية معرض النحات سعيد مخلوف بمعرض "الفضاء" رغم أن مساحته كانت أصغر من مساحة القن!

ثمة مرآة شاحبة في الأفق الأدبي، تتساءل منذ الآن عما سوف تعكسه وسط أشباح تغطي وجه الشمس.. هذا ما تجيب عليه (المرآة الشاحبة) الرواية الأولى لسنية صالح بعد أن تأتي على فصلها الأخير

***

والآن لنخرج من المقاهي والمعارض والمقابر إلى الهواء الطلق. حيث بعض الأصوات البريئة الهامسة تتسارع كدقات القلب. في عصر شاخ فيه حتى القلب. إنها الهلام تحمل في رؤوسها فيض السحب وغبار القرى. تنشد أولوية في أي طريق لصنع قدرها، ولكن في حقبة إنسانية عصيبة لا تسمح لباقتها للإنسان بأن يشارك في صنع قدره بأكثر من تسريح الشعر وتزرير السترة. ومع أن حماسة هذه الفئة من الأدباء الشباب ستكون من أجل ذكرياتها في المستقبل إلا أنها تظل في الوقت الحاضر المروحة الوحيدة في هذا الجو الأدبي الخانق.

هناك لوحات وقصص ومقالات وقصائد، ولكن ما تعكسه لا يضيء الملامح الدفينة. التجاعيد المرصوصة فوق بعضها بفعل الجبن والتغاضي وسوء الاحتيال، إلا أن ثمة مرآة شاحبة في الأفق الأدبي، تتساءل منذ الآن عما سوف تعكسه وسط أشباح تغطي وجه الشمس. بل أية ظلال سوف ترتسم على الزجاج المؤطر بالشك وصرخات الغضب في آذان فقدت رصانة الانتباه وحياد الاصغاء. هذا ما تجيب عليه (المرآة الشاحبة) الرواية الأولى لسنية صالح، بعد أن تأتي على فصلها الأخير. فصل الابتهال لأحلام لم تتحقق والغفران لأخطاء لم ترتكبها.

مجلة (حوار) اللبنانية- تشرين الأول/ أكتوبر 1965

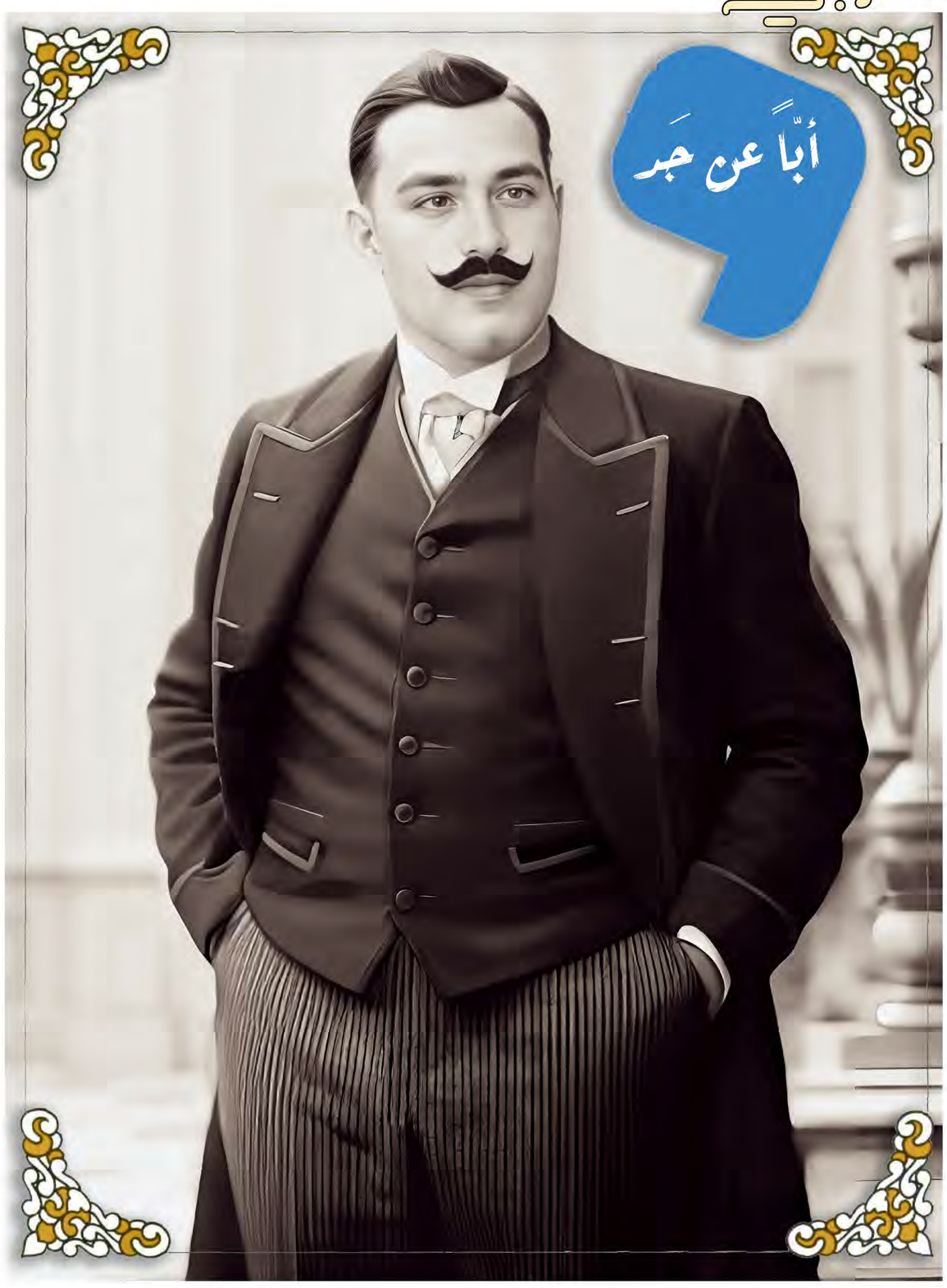

عبد القادر الملّاح رائد الحداثة الزراعية في سورية 1878 -1931

بقلم: عمرو الملاح

لطالما اقترنت النهضة الزراعية التي شهدتها سوريا في الخمسينيات من القرن المنصرم بظهور رسملة القطاع الزراعي ومكننته، وبروز ما يمكن تسميته من منظور نسبي بـ"الثورة الزراعية"، التي لمعت فيها أسماء عدد من المستحدثين الزراعيين، ويُقصد بهم أصحاب رؤوس الأموال الذين اقتحموا عالم الزراعة في فترة ما بين الحربين وما تلاها، ومن أبرزهم أصفر وتجار. وأما المبادرات التحديثية التي قادها أخصائيون زراعيون سابقون على هؤلاء ممن ينتمون لطبقة "الأعيان" البيروقراطيين-الملاك التي تكونت في خضم حركة الإصلاحات التحديثية العثمانية (التنظيمات) التي بدأت في أواسط القرن التاسع عشر؛ تلك المبادرات الرائدة الرامية لتطوير النظم الزراعية التقليدية السائدة في البلاد عن طريق إدخال التكنولوجيا الحديثة، وتدريب المزارعين على استخدامها فظلت مهمشة في السردية الوطنية للتاريخ السوري المعاصر، وقابعة في زوايا الإهمال والنسيان.

تحاول هذه المقالة الخروج على الصورة النمطية المترسخة في "المخيال" السوري، التي كرستها المناهج الدراسية والدراما التلفزيونية، لما يُسمى بـ"الإقطاع" الرجعي، الجائر، الظالم عبر تسليطها الضوء على الدور المغيب الذي اضطلعت به نخبة من مُلاك الأراضي "الحداثيين" في تطوير الزراعة السورية، وفي مقدمهم الأخصائي الزراعي الرائد عبد القادر الملاّح (1878-1931)، باعتبارها جزءاً من سياق تاريخي أكبر وأوسع نطاقاً بكثير ويتمثل في الحركية الاقتصادية التي عرفتها سوريا منذ مطالع القرن العشرين، والتي كان تطوير القطاع الزراعي يقع في صميمها.

مولده ونشأته

ولد عبد القادر ناصح الملاّح بحلب في العام 1878 في أسرة عريقة ذات نفوذ ومكانة؛ فوالده مرعي باشا الملاّح رجل الدولة والزعيم السياسي الحلبي المعروف، ووالدته السيدة أسماء خانم الأوبري. وبعدما تلقى تعليمه الأساسي والثانوي في مدارس حلب انتقل إلى اسطنبول لدراسة القانون، ثم سافر إلى باريس حيث عزز خبراته العلمية في التخصصات الزراعية بغية تحديث استثمار ممتلكات العائلة من الأراضي الزراعية.

في خدمة الدولة العثمانية

بدأ الملاّح عمله الوظيفي معيناً مدرساً في شعبة الزراعة لدى "المكتب الإعدادي الملكي" بحلب في مطالع القرن المنصرم، ثم ما لبث أن عين رئيساً لقلم المحاسبة لدى البنك الزراعي، الذي كان أكبر مؤسسة مالية عثمانية تضطلع بدور أساسي في إنماء القطاع الزراعي، متنقلاً بين فروعه في دمشق (1904)؛ وإزمير (1906)؛ وحماة (1908). ليشغل بعدئذ المناصب التالية على التتابع: مدير التحصيلات في ولاية حلب (1909)؛ عضو هيئة تحرير المسقفات (الأملاك المبنية) لدى نظارة المالية في اسطنبول (1910)؛ مدقق الدوائر الضريبية في ولاية إزمير (1912)؛ رئيس هيئة تحرير المسقفات في الولاية ذاتها (1913)؛ مدير أملاك الدولة (الأميرية) في ولاية حلب (1913)؛ رئيس دائرة المحاسبة في الولاية ذاتها (1914). وقد نال من التكريمات السلطانية العثمانية "ميدالية الحجاز"، التي أنعم عليه بها السلطان عبد الحميد الثاني في العام 1904؛ وذلك تقديراً لإسهامه في تمويل إنشاء الخط الحديدي الحجازي.

كرست المناهج الدراسية والدراما التلفزيونية صورة نمطية لما يسمى بـ "الإقطاع" الرجعي، الجائر، الظالم

أصدر صحيفة "مأمورين" في الفترة الممتدة بين العامين 1910 و1912 لتكون بمثابة ناطق باسم موظفي الخدمة المدنية، ومدافع عن حقوقهم

ريادته في الصحافة الاختصاصية وبواكير الحركة النقابية العثمانية

أحب الملاّح الأدب في سن مبكرة، وبدأ حياته الأدبية بكتابة المقالة ونظم الشعر باللغة التركية، ونشر نتاجه في كبريات المجلات الأدبية والسياسية العثمانية، ومن أشهرها مجلة "معلومات" التي كانت تصدر في اسطنبول (1895-1903).

وقد عمل على الإفادة من بيئة الحرية النسبية التي توافرت في ظل عهد "المشروطية" الثانية (الدستور)؛ فأصدر في اسطنبول نشرة مالية واقتصادية باسم "تعرفه" في العام 1910، تلاها إصداره صحيفة "مأمورين" (بالعربية: الموظفين) في الفترة الممتدة بين العامين 1910 و1912 لتكون بمثابة ناطق باسم موظفي الخدمة المدنية، ومدافع عن حقوقهم.

ترى الباحثة التركية إليف يلماز شينتورك الأستاذة بجامعة مرمرة أن هذه الصحيفة، التي كان مقر إدراتها كائناً بالقرب من الباب العالي في العاصمة، استطاعت أن تضطلع على مدى ثلاث سنوات على الأقل بدور "نقابة" للموظفيين الحكوميين؛ إذ وفرت لهم منبراً للتعبير عن أنفسهم وطرح مشكلاتهم وتقديم شكاياتهم، جنباً إلى جنب مع تناولها قضايا تتصل بالإصلاح الإداري، ونشرها كافة القوانين واللوائح والقرارات المتعلقة بموظفي الخدمة المدنية، مستدلة على ذلك بإحداث الملاّح هيئة لمتابعة شؤون الموظفين ومصالحهم من أنحاء السلطنة كلها أطلق عليها تسمية "شعبة تعقيب المصالح" وجعلها ملحقة بإدارة الصحيفة، والتي باتت تعد بمنزلة "النقابة" التي تُعنى بحل كافة المشكلات القانونية المتعلقة بموظفي الخدمة المدنية.

وتعزو الباحثة توقف الصحيفة عن الصدور، بعدما تكبد صاحبها أعباء مالية ضخمة، إلى الظروف الداخلية والخارجية التي عصفت بالدولة العثمانية، ومن أهمها اندلاع حروب البلقان، التي ألقت بظلالها على الواقع المُعاش في بقية أجزاء السلطنة، بالإضافة إلى الأزمات الاجتماعية والمالية التي سببتها الحرب العالمية الأولى فيما بعد، ولا سيما "أزمة الورق" التي هددت الطباعة في كافة أرجاء الدولة العثمانية.

حقق الملاّح شهرة واسعة في الأوساط الأدبية العثمانية حينما عارض بقصيدة من نظمه القصيدة الحماسية التي نظمها السلطان العثماني

محمد الخامس (رشاد) في معركة (جناق قلعة) في العام 1915. وقد نشرت قصيدته تلك في كبريات صحف اسطنبول في تلك الفترة ومن أبرزها "تصوير أفكار".

ومن مؤلفاته بالتركية العثمانية إصداره في العام 1919 كتاباً بعنوان "دليل تجاري"، وهو دليل تجاري واقتصادي عن اسطنبول.

مبادراته في العهد الفيصلي

واصل الملاّح إبان العهد الفيصلي عقب الانهيار العثماني ونهاية الحرب العالمية الأولى نشاطه في مأسسة القطاع الزراعي عبر مشاركته في تأسيس "الندوة الزراعية" بحلب للبحث والتشاور مع المزارعين بشأن تطوير القطاع الزراعي وترقيته، وكذلك إحداث أول "نقابة" للمهن الزراعية بحلب، والتي كان من أعضاء هيئتها الإدارية. بالإضافة إلى مساهمته في سياسة التعريب والنشر التي انتهجتها الحكومة العربية؛ إذ أصدر بمبادرة منه وعلى نفقته الخاصة بحلب في العام 1920 معجم "ألف باء ناصح"، وهو كتاب مدرسي لتعليم الناشئة اللغة العربية وقواعدها بطريقة بسيطة وميسرة.

في خدمة الدولة السورية

عُرف من المناصب التي أسندت إلى الملاّح في حقبة الانتداب الفرنسي تعيينه محاسباً في مديرية مالية الاتحاد السوري في العام 1923، ولكنه ما لبث أن استقال نظراً لتعيينه مديراً لمنطقة اعزاز(قائمقام). وفي العام 1924 أسند إليه منصب مدير المصرف الزراعي المركزي لدولة حلب، حيث عمل على تطوير زراعة القطن في المناطق الشمالية بسوريا؛ إذ يسر المصرف توزيع بذور القطن على المزارعين شريطة أن يؤدوا (20%) من ثمنها مسبقاً وحسب، على أن يسددوا ما تبقى بعد عشرة شهور، أي بعد جني الموسم وبيعه في السوق العالمية. كما بلغ حجم القروض الزراعية التي منحها دعماً للمزارعين في العام 1924 ثلاثمائة ألف ليرة سورية، وهو مبلغ ضخم لم يسبق للمصرف الزراعي أن أقرضه في عام واحد منذ تأسيسه.

أخيراً، ونتيجة لمركزه الاقتصادي والزراعي انتخب عضواً في مجلس إدارة غرفة زراعة حلب في العامين 1926 و1928.

إصداره مجلة "الجريدة الزراعية"

أدرك الملاّح أن الزراعة في بلادنا تؤلف أهم موارد الإنتاج التي هي عماد نهضتها وواسطة تقدمها الاقتصادي. ولهذا أولاها جل اهتمامه، فعمل على النهوض بالواقع الزراعي وسعى إلى تطوير الزراعة في جميع المجالات العلمية والعملية، مسخراً في ذلك كل ما توافر لديه من إمكانات وطاقات مادية وفكرية، ومن أهم المشروعات التي كانت لبصماته الأثر الواضح في تفاصيلها إصداره مجلة "الجريدة الزراعية" بحلب بين العامين 1924 و1925، التي كانت من أوائل المجلات السورية المتخصصة بالاقتصاد الزراعي.

كانت "الجريدة الزراعية" مجلة مصورة نصف شهرية تصدر بالعربية، ولها ملحق بالفرنسية بعنوان Revue Agricole Illustrée، وتهدف إلى خدمة الزراعة والزُراع، وأن تقدم لهم الإرشادات وتدعوهم لإدخال المكننة الحديثة في العمليات الزراعية، نظراً لما لها من دور كبير في زيادة الإنتاج وتخفيض تكلفته وزيادة مساحة الرقعة الزراعية لتلبية الاحتياجات البشرية المتزايدة من المحاصيل الغذائية والتجارية بدل الوسائل التقليدية. وسرعان ما استقطبت المجلة أقلام نخبة مختارة من الباحثين والدارسين في مختلف التخصصات ذات الصلة حتى أصبحت واحدة من المجلات العلمية المختصة التي تحظى بمكانة خاصة. وكان الملاّح يذيل مقالاته فيها بعبارة (الفلاح الحلبي) مما يدل على تواضعه وسعة أفقه.

يُذكر أن صحيفة "لسان الحال" البيروتية نشرت في صيف العام 1924 تقريراً عرضت فيه لجوانب من الدور الرائد، الذي اضطلع به الملاّح في ميداني النشر الصحفي الزراعي والإرشاد الزراعي، وإطلاقه المبادرات الرامية إلى تنمية الموارد الزراعية، ومما جاء فيه أنه "عزم على اصدار جريدة اسمها "الجريدة الزراعية" يكتبها هيئة من علماء الزراعة وكبار الزراع، تصدر في مبدأ ومنتصف كل شهر، ذات 64 صحيفة، موشحة بالصور والرسوم الزراعية وصور كبار الزراع وخادمي الزراعة، وتعنى بجميع الشؤون الزراعية، وتربية الدجاج، والمواشي، والكلاب، والنحل، ودود القز، وغير ذلك مما يتعلق بصناعة الزراعة، ومعداتها، وآلاتها، وقوانينها. وتقوم باحتفال سنوي تعرض فيه المسابقات الزراعية، التي تفتتحها بين مشتركيها، وتوزع الجوائز لمن يربح في تلك المسابقات".

أصدر بمبادرة منه وعلى نفقته الخاصة بحلب في العام 1920 معجم "ألف باء ناصح"، وهو كتاب مدرسي لتعليم الناشئة اللغة العربية وقواعدها بطريقة ميسرة

جهوده للنهوض بالواقع الزراعي في البلاد

لم تقتصر دعوة الملاّح إلى إدخال المكننة الحديثة في العمليات الزراعية على الجانب العلمي النظري وحده، وإنما تعدت ذلك إلى الجانب العملي التطبيقي أيضاً؛ إذ كان من أوائل أصحاب وكالات كافة أنواع الآليات الصناعية والزراعية بحلب، والمنتقاة من أشهر وأهم المصانع الأوروبية والأمريكية، ومن أبرزها شركة "دوبلكس" الأمريكية (Duplex Mill & Mfg. Co) الشهيرة المتخصصة بتصنيع المطاحن وآلات غربلة الحبوب، والتي كان وكيلها الحصري في سوريا. ومما امتاز به محله، الذي اتخذ من شارع النصر بحلب عنواناً له، هو تقديمه خدمات ما بعد البيع، التي شملت تركيب الآليات وتشغيلها والتدريب على استخدامها على أيدي مهندسين متخصصين، واستعداده لعقد المقاولات، ومنحه تسهيلات في السداد تتمثل في تحصيل نصف الثمن على أقساط. إلى جانب تأسيسه شركة لتصدير الحبوب والغلال، والتي كانت تمارس نشاطها التجاري في الخان العائد لعائلته المسمى بـ"خان الباشا" في محلة خان السبيل.

وكان وزير الزراعة الفرنسية قد كرم الملاّح في العام 1923 بمنحه وسام "الاستحقاق الزراعي" بدرجة فارس (شوفاليه)، وهو الوسام الرفيع الذي تمنحه الحكومة الفرنسية تقديراً للشخصيات التي تقدم خدمات جليلة في القطاع الزراعي.

واصل الملاّح جهوده ومبادراته الرائدة الرامية إلى النهوض بالواقع الزراعي في سوريا، متحملاً أعباء مالية كبيرة في مسعى منه لتخطي كافة العقبات والصعوبات التي اعترضت طريقه، ومن أهمها أن المزارعين في بلادنا كانوا يستغربون ما يقدمه من طرق وأساليب زراعية حديثة لاعتقادهم بأن الزراعة إنما هي حرفة عملية تكتسب بالتقليد والمحاكاة ولا تحتاج إلى المعرفة العلمية والتطبيق العملي لها.

كما أن نشاطه الاقتصادي تضرر بشكل بالغ إبان الأزمة الاقتصادية العالمية (1929-1931)، التي ظهرت أولى آثارها على شكل انخفاض حاد في أسعار الحبوب والقطن وصعوبة بالغة في تسويقهما؛ فتكبد ووالده، الملاّح باشا، خسارات فادحة في مجال تصدير القطن والحبوب اللذين كانا يعتمدان عليهما في نشاطهما الزراعي والتجاري، بالإضافة إلى الآثار السلبية المترتبة على اجتياح موجة جفاف حادة للبلاد استمرت وفق وتائر مختلفة قرابة سبع سنوات ابتداءً من العام 1926.

بلغ حجم القروض الزراعية التي منحها دعماً للمزارعين في العام 1924 حين عين مديرا للمصرف الزراعي لدولة حلب ثلاثمائة ألف ليرة سورية، وهو مبلغ لم يسبق للمصرف أن أقرضه في عام واحد منذ تأسيسه

بروزه في الحركة الوطنية

لم تشغله جهوده للنهوض بالواقع الزراعي في البلاد عن المشاركة في المشهد السياسي؛ فبرز في الحركات الوطنية، ونادى بالوحدة السورية بعدما مزقها الفرنسيون إلى دويلات. واضطلع إلى جانب إخوانه من الساسة الوطنيين إبراهيم هنانو والدكتور حسن فؤاد إبراهيم باشا وجميل إبراهيم باشا والدكتور عبد الرحمن الكيالي وسعد الله الجابري ورشدي الكيخيا في العام 1926 بدور رئيس في إسقاط محاولة سلطات الانتداب فصل ولاية حلب عن الدولة السورية وجعلها دولة مستقلة من جديد؛ فاعتقل وحوكم وسجن ستة أشهر وغرم مالياً.

نادى بالوحدة السورية بعدما مزقها الفرنسيون إلى دويلات، فاعتقل وحوكم وسجن ستة أشهر وغرّم مالياً

رحيله

في مساء يوم من أيام نيسان/ أبريل العام 1931 غيب الموت عبد القادر ناصح بك الملاّح وهو لايزال في أوج عطائه، وبرحيله فقدت البلاد شخصية فذة متعددة القدرات والاهتمامات ومتكاملة الجوانب والأبعاد؛ فقد كان شاعراً، وأديباً، واقتصادياً، وسياسياً، وزعيماً وطنياً، ومربياً تخرجت على يديه نخبة من الأخصائيين الزراعيين، ورائداً من رواد الزراعة الحديثة في سوريا، وكذلك رائداً من رواد الصحافة الاختصاصية والعمل النقابي في كل من سوريا وتركيا. ومما يؤسف له أنه لم ينل بعد حقه من البحث والدرس.

"ليس من عمل حقير في العالم إلا العمل الذي تديره يد متواكلة حقيرة. إنّ في حرفة الكناسة مجالاً للعبقرية، كما أن في مهمة إدارة الأمم مجالا للحماقة والغرور، ولو أنّ كل فرد في هذه الأمة اتجه إلى اتقان عمله باذلاً فيه كل جهد، لبدتْ طلائع الرقي بين الطبقات الوضعية، قبل أن تبدو بين الطبقات العليا."

فليكس فارس
1882- 1939

ملوك ورؤساء العالم العربي كما نشرت صورهم غداة الحرب العالمية الثانية عام 1945

بمشاركة لؤي كيالي وفاتح المدرس وعبدالقادر أرناؤوط والياس زيات ومحمود حماد

تظاهرة فنية سورية في لبنان

الناقد صلاح ستيتية: إن الفن السوري الحديث شيء موجود ولم نكن ندري بذلك

مجلة [الشعلة] أيار/ مايو 1962

أكبر ضجة ثارت حول النتاج الفني السوري، هي تلك التي جرت في بيروت خلال شهر آذار الفائت. فقد عبأ الرسامون السوريون قواهم، وفي شبه تظاهرة فنية أشرفت على تنظيمها "صالة الفن الحديث العالمي" في دمشق، نزلوا إلى عروس البحر المتوسط بيروت، وهناك عرضوا لوحاتهم التي تتدرج من أدنى الكلاسيكية إلى أقصى التجريدية، في أشهر أروقة الرسم في العاصمة اللبنانية: "باتو- لافوار".

وكان بين نجوم فن التصوير السوري الذين رافقوا المعرض فاتح المدرس الذي أحرز في السنة الفائتة ميدالية تقديرية من معرض سان باولو الدولي، ولؤي كيالي الذي نال جوائز قيّمة خلال دراسته في إيطاليا. وأنت تنظر إليه بعد عودته إلى سورية منذ أن عرض أولى لوحاته، وبرز اسمه خلال فترة قياسية إلى مصاف أوائل الرسامين. وكذلك عبد القادر أرناؤوط الذي تمتاز صوره بنوع من السذاجة الآسرة، والذي طوّر فن الإعلان في سورية، وبلغ به مرتبة الفن بعد أن ظل حبيس العامية أمدا طويلا.

وقد نشرت مجلة (لوريان – ليتيرير) البيروتية مقالة دراسية مطولة حول المعرض بقلم شريف خزندار، ونشرت جميع صحف بيروت ومجلاتها دراسات نقدية أخرى أبرزت مدى تقدم فن التصوير السوري، كما بينت تحفظاتها على لوحات بعض المصورين. وكانت الكلمة التي كتبها صلاح ستيتية حول المعرض السوري من الكلمات المعبرة عن أهمية المعرض فقال:

" إن الفن السوري الحديث شيء موجود، ولم نكن ندري بذلك" وبعد الدهشة الأولى يدخل الكاتب في صميم اللوحات: وبالرغم من بعض الضعف الذي لا يخلو منه أي معرض جماعي، فإنك مكتشف فه باندهاش ما يلي: إن ثمة شيئا ما قد تبدل حقا في أرض الشرق، فثمة اندفاع نحو صور المستقبل، ووعي جديد ترافقه إرادة بتغيير العالم، ورغبة الانغماس أعمق فأعمق في مشكلات العصر وإيقاعاته؛ بل إنك مكتشف أيضا بأن التصوير اليوم وطن عمومي، وأن بحوث بعض الناس هنا وهناك، من بلد إلى بلد تتقاطع وتتكامل"

ثم ياتي الكاتب إلى التعميمات فيقول:" والواقع فإن الذي يجعل من هذا المعرض السوري سوريا على وجه التخصيص؟ إنه من هذه الأرض ومن غير هذه الأرض. إنه يتحاشى عن عمد جميع أسباب السهولة الفلوكلورية إلى التعبير عن أسلوب. أسلوب فيه نظام أو لا نظام متماسك ضمن اللوحة، ودون أي رجوع فوري إلى عناصر خارجة عن الأثر الفني وتركيبته وعلاقاته الداخلي. إن وطن الفنان الحديث هو دون ريب أسلوبه".

فأما أسلوب محمود دعدوش فيتبدى فيه أثر إقامته الطويلة في روما، ويقول عنه الكاتب ممتدحا: "إنه بصاق متين من الألوان قد مازجتها الرمال وجملتها الحُبيبات" ويضيف: إن ما يفاخر به دعدوش أنه الوحيد الذي يمثل اتجاهه في الفن السوري اليوم".

ويمر الكاتب مسرعا باللوحات التي انتقيت لفيوليت عبجي ذات اللمسة التأثرية،وروبير ملكي ذي التأثيرات الزخرفية، وعفيف بهنسي الذي قيل عنه إنه حساس ومنفتح في فنه، والياس زيّات ومحمود حمّاد ذي الأسلوب المتين اللاحق للتكعيبة، ونعيم اسماعيل المتأثر بالزخرفات العربية.

ويتوقف صلاح ستيتية عند لوحات عبد القادر أرناؤوط فيصف جوّه بالشاعرية ويشبهه ببول كلي فيما يتجلى من سحر عميق في مناظره البلورية، ثم يقف حالماً أمام وجوه لؤي كيالي ومناظره ذات النكهة الإيطالية، ولكنها مع ذلك توحي بالقلق لما فيها من فرط اعتناء تكتيكي على حساب الوحي المتفجر. ويلفت انتباهه ما في لوحات أحمد دراق سباعي من وحدة واتزان وقدرة على التركيب المبسط، والجرأة في استخدام الألوان المتناقضة. ثعم يصل آخر الأمر إلى فاتح المدرس فيقول عن لوحاته إنها خير ما يعبر عن "الحال الجديدة في الفن السوري. فلهذا الفنان عالمه، عالم تنيره شمس سوداء، هي شمس أستاذه (دوبوفيه) غير أنه يحيا وينبض بشدة، تحركه هيجانات غنائية حقيقية. في هذا العالم تلعب صور الطفولة والسذاجة الماكرة دروا أساسياً وتتميز آثار مدّرس من حيث الشكل بنوع من الخرق المقصود وتمتلئ بالكنايات واللطخات

وينهي الكاتب مقالته الثمينة بقوله: "لقد كان يقال منذ سنوات بأن على سورية أن تعود فتربط بين حاضرها وتقاليدها الثقافية الحية المبدعة. ويبدو أن ذلك أضحى أمراً واقعاً بفضل هؤلاء النفر من الفنانين الشباب"

حفلة المعهد الموسيقى للاذاعة السورية

اقام المعهد الموسيقى للاذاعة السورية اولى حفلاته الغنائية وذلك نهار الخميس الواقع في ٥ شباط الجاري على مسرح سينما دمشق • وقد امتازت الحفلة بالوان رائعة من الغناء العربي قدمها المعهد ، فكان موفقا بها كل التوفيق •

ولكنه لم يكن موفقا قط بدعوة عدد كبير من الرجالات الرسميين وغير الرسميين ، اولئك الذين لا يتذوقون هذا اللون من الطرب والفن ، حتى لقد رأيناهم يغادرون الحفلة بعد انقضاء نصف ساعة من بدء البرنامج •

وقدساهم في هذه الحفلة نخبة من اقدر الفنانين والفنانات اولهم السيدة ماري جبران التي ابت الا ان تحلق وتبدع كعادتها • لقد اثبتت ماري جبران من جديد على انها اول مطربة في الشرق بعد ام كلثوم ، وكذلك اجادت نجاح سلام والهبت الاكف بالتصفيق • اما سلامة الاغواني فيأبى الا ان يظل في المؤخرة •• يكرر لونا واحدا من اغانيه الشعبية التي ملها الناس وسئموا ترديدها في كل مناسبة •

ولا ريب ان الفضل الاول والاخير لنجاح هذه الحفلة الكبرى يرجع الى النائب المحترم السيد فخري البارودي الذي سكت دهرا ونطق بعد ذلك فنا صحيحا يحق لنا ان نهنئه عليه اصدق تهنئة •

مجلة (الدنيا) الدمشقية 1948/2/17

فاصلة

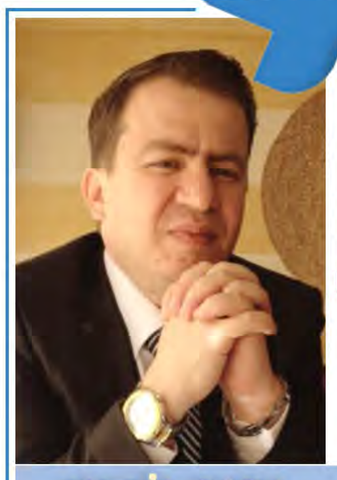

العربي القديم وثروة الأدب التسجيلي

محمد منصور

عشقتُ الأدب التسجيلي منذ بداية اهتمامي بالقراءة. وأحببته قبل أن أدرك حسبه ونسبه وأتعرف على شجرة عائلته. وعندما تفتح وعيي بالأنواع التي أقرؤها، أدركت أن الأدب التسجيلي يضم أنواعا ثلاثة:

أدب الرحلات، السيرة الذاتية، أدب الرسائل.

على مدى أربعة عقود هي عمري كقارئ، أدمنت قراءة أدب الرحلات التي كان مقصدها دمشق، حتى خيل لي وأنا أتوه مع الرحالة في أزقة وحواري وبساتين الشام، أنني أسمع الجواهري يهمس في أذني: "وكان قلبي إلى رؤياك باصرتي حتى اتهمتُ عليكِ العينَ والحدقا". ثم توسع اهتمامي حين غادرت وطني سورية فصرت شغوفا بكل الرحلات إلى بلاد الشام، علني أستعيد ذاكرة وطن تتوارثه النكبات والآلام. كما استغرقتني رحلات الكتّاب إلى المناطق المكنوبة في العالم فألّفت عنها كتابا توثيقيا أسميته (أدب الرحلات النبيلة)

أما أدب السيرة الذاتية، فقد استأثر بي طويلا، منذ قرأت (اعترافات) جان جاك روسو، وكنت فتى في الإعدادية، فبهرتني حالة الجرأة والمكاشفة مع الذات والآخرين، كما لم تنسني الأيام الطوال (اعترافات شاب) لجورج مور قبل أن أكتشف أن الاعترافات شيء آخر غير السير الذاتية، رغم أن كليهما ينتميان لشجرة عائلة الأدب التسجيلي، أي الأدب الذي يسجل فيه الكاتب الوقائع التي حدثت أو عاشها سواء على شكل رحلة قام بها أو ترجمة ذاتية، أو رسائل متبادلة. سحرتني (أيام) طه حسين، وأشجتني سيرة الأديب السوري بديع حقي (الشجرة التي غرستها أمي) وقد عجنت بتراب حي سوق ساروجا وذكريات دمشق وعبق أيامها. ومن السير الذاتية التي يكتب فيها الكاتب قصة حياته، جرفتني السير الغيرية ببراعة ما يكتبه الكتاب من سير كتاب وأدباء أو فنانين آخرين، فكانت سير بروست ورامبو ووايلد وهيغو وأنطوني كوين مثالا مفعما بالتقصي العميق والرسم الرشيق. ومن الاعترافات والسيرة الذاتية والغيرية إلى أدب المذكرات واليوميات ثمة حكايات تروى عمّن دار بهم دولاب الزمن من النواب والوزراء والسياسيين ولنا في مذكرات خالد العظم وأكرم الحوراني وبشير العظمة ومنصور الأطرش نماذج وأمثولات لمصائر تتقاذفها أهواء السياسة ومصائبها.

أما أدب الرسائل فقد أخذني بين العشاق والأصدقاء لأتلمس عذرية رسائل مي وجبران، ونرجسية غادة السمان وهي تنشر رسائل غسان كنفاني من طرف واحد، كما طافت بي بين الأدباء وتلاميذهم لأقرأ مساجلات شتى.

في مجمل ما تقدمه شجرة عائلة الأدب التسجيلي، ثمة صورة حياة كاملة لأشخاص وأمكنة ورحالة وعشاق ومذكرات ويوميات، وستهتم (العربي القديم) بكل هذه الثروة، وهذا الإرث وتسعى للتركيز عليه، علها تعيد شيئا من ملامح زمان ومكان وأوطان تصنعنا.